تَفَاصِيلُ الجُمَلْ

شرح لامية ابن الوردي

د. عبدالعزيز الحربي

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحربي، عبدالعزيز

تفاصيل الجمل شرح لامية ابن الوردي / عبدالعزيز الحربي.-

الرياض، ١٤٢٤هـ

١١٢ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٩-٣٤٥-٤٠-٩٩٦٠

١- الشعر العربي ـ نقد ـ عصر المماليك أ. العنوان

ديوي ٨١١,٨٢٠٠٩ ١٤٢٤/١٨٨٩

ردمك: ٩- ٣٤٥-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٤/١٨٨٩

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

بين يدي التفاصيل

وقع «تفاصيل الجُمل» بيد صاحبنا العلاَّمة الدكتور: عائض بن عبدالله القَرني، فأطرقَ إطراقةً لم يَرفعْ رأسه من بعدها حتى فاضت قريحته الفيَّاضة وذهنه المتوقِّد بهذه المقدِّمة المُنْبِئة عن أدب جمّ وخاطر مشرق.. فصَّل بها لـ«التفاصيل» ثوباً من زينة الأدب، ووضع لها تاجاً من جوهر البيان، ونسجَ لها من خيوط البراعة بسِنان اليراعة وِشاحاً من البلاغة..

وإني أُبادله بحُسن الظن يقيناً من الإكبار، وجُمَلاً من الثَّناء.. ولقد كاد يسبقني قلمي لكتابة شيء أَذْكُرُ بِه قدْرَ نفسي عند نفسي.. غير أن من التواضع ما هو فخر.. قال يحفظه الله:

لو علم ابن الوَرْدي بمن سوف يشرح لاميتَه لسكب سروره في قوافيه، ولأراق كأس فرحه في أبياته، كيف وشارحها من أذعن لبيانه أساطين البيان، وانبهر من جلال علمه دهاقنة الحكمة، أتاك هذا الكوكب النوراني يشق

دياجير الغموض، وينير سراديب الأشكال، وما فضَّلتُ النثر يوماً على الشعر حتى رأيتُ نثرَه على شعر ابن الوَرْدي، فعلمتُ أن نثر الدُّرّ أجمل في العيون، وكان حقاً تشبيه الولدان بالدُّر المنثور، ولم يكن أبو محمد عبدالعزيز بن علي الحربي مقلِّداً جامداً باهتاً بارداً، بل كان -أثابه الله- متفرِّداً في بيانه، متميزاً في إبداعه، يَغرف من بحرٍ لُجِّيٍّ، ويُنفق من تَرِكةٍ مباركة، مع ذاكرة وقّادة، وطبيعة منقادة، وذهن كصيِّب نافع، وخاطر كسَنا بَرْقٍ صادق.

إن هذا الشارِح عالِمٌ قبل أن يكون أديباً، وموسوعي قبل أن يكون ناقلاً، فهو أتى إلى هذه اللامية كامل العُدَّة، مليء العيبة، زاخر البحر، وقد أقبل كالسيل المتلاطم، لكنه يحمل دُراً لا حجارة، وياقوتاً لا خشباً، يُسعفه كتاب الله الذي أفرغه في قلبه، وسكبه بين جوانحه، فهو يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل، في ذاكرة كجنة بربوة أصابها وابل الوحي، فآتت أُكُلها من الفهم الثاقب ضعفين، فإن لم يُصبها وابل الدليل، فطَلُّ الاستنباط، وندى الاجتهاد، ويؤيِّده في شرحه

رسوخ علمٍ استسهل في نيله الصِّعاب، واستعذب في جمعه العذاب، في سنين طوال بين المحراب والمنارة، والروضة والمنبر، فهو من المهاجرين لطلب الحِكمة، والأنصار في الذَّبِّ عن الحق، لزم بيته يفلي أسفار العلوم حرفاً حرفاً، ويفري أديم المعرفة شبراً شبراً، حتى أتى بشرح سحب به على سحبان البيان النسيان، وأنسى الناس سيبويه من أزمان، فلو اطّلع الكسائي على علمه لخلع له كساءه، ولو شاهد المُزَني قريحته، لملأ من مُزْنه إناءه.

والرجل موهوب، يسابق قلمُه لسانه، وينافس خاطره جَنانه، مع تجويده لعلوم الآلة، فهو صاحب فنون، ولحديثه شجون، جدَّ حتى أخنى جواده، واجتهد حتى ودَّع سهاده، تصدق بنومه على النجوم، وأهدى كراه الكواكب، فحاز رتبة الريادة، ونال وسام السيادة، ما أتحف به قلوب محبيه، وحيته أرواح عارفيه، فله من أعماق أهل الفضل تحايا، وإليه تسير من ديار الوفاء مطايا، فقِبلة أدبه عامرة، وكعبة شرفه آهلة، فجعل الله مداده وزن دماء الشهداء، وحشره في كوكبة الأنبياء، جزاء سهر ذابت

معه حشاشته، وثـواب تحصـيل ذبلـت فيـه أجفانـه، والله يحفظـه لـدنيا المعـارف أسـتاذاً، ولعـالم العلـوم إمامـاً، وصلى الله وسلم على قائد الغُـرّ المحجَّلـين، وآلـه وصـحبه والتابعين.

د. عائض القرني

١٤٢٣/١٠/٦هـ

obeikandl.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

منَ الأحسنِ لنا أن نتعلَّم من تجاربِ أنفسنا بما نشاهده من خَطَل يعرِضُ في كلِّ حين، وتجارِب فاشلة أحياناً، ونتعلّم من تجارب من حولنا، وإنه لمن جميل حظك أن يفشل غيرك، وتنتفع أنت بفشله، وليس هنالك أنكى على من عاداك من أن تجعله وسيلة نافعة لك دونه، وعظة وعبرة تعتبر بها.

ولو فعل الناس ذلك جماعات ودُولاً وأفراداً ؛ لما وقع أحد في كثير من الخسران.. ولكن النسيان والآمال والحَدْس والأطماع تفسد الاعتبار، فيظلم الناس أنفسهم، يخرجون من الهلكة ويعودون إليها، ويصيبهم ما يضرهم، فيرجعون إلى أسبابه، ويرون غيرهم يشربون من كئوس الويل والنكال، ويَغفلون، وقد يَعتبِرون ساعة، ثم يكعِّون، كالمرأة التي يصرعها ألم المخاض، وتعزم وتقسم على أن

لا تمكّن من الحمل بعد ذلك، ثم تنسى، وتعود أطلبَ له مما كانت.

وإن ترد معرفة عقل الخاطئين من المكلَّفين، وضعف نفوسهم، وضآلة بصيرتهم، فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

ودعني أصوِّرْ لك المقام بتفصيل:

هؤلاء هم الظالمون.. بُعثوا وحُشروا جميعاً.. عُرضوا على شفير جهنم، النار تَلفحُ وجوههم..تَسفع أبشارهم..يتمنون أن يُرَدّوا إلى الحياة الأولى.. أن يُمنحوا فرصة أخرى، فلا يُكذِّبوا بالآيات والرسل.. ينتظموا في جماعة المؤمنين المصدقين برسل الله، ووعده، ونعيمه، وعذابه، ماذا لو أعطاهم الله ما تمنَّوا، ورُدّوا إلى الحياة الدنيا بعد وعدهم المؤكّد، وبعدما رأوه من هوْل وفزَع، وبعد أن مَسَّهم لهب النار، وبعدما أدركوا

---

(١) سورة الأنعام: ٢٧.

ما لا يوصَف..؟ أيتوقع أحد أن يُضيِّعوا نَفَساً واحداً في غير الطاعة إذا رُدُّوا..؟ أيَتصوَّرُ أحد أن يَكذِبوا في وعدهم..؟ قال الله: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، خابت الآمال كلها، وكذبت كل التصورات وبطل كل هاجس، ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾.

وفي حياتنا نماذج كثيرة تنبئ عن الخيبة ولو صغرت.

وفي القرآن آيات كثيرة تُخبر أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون.. وبالغ ابن الوَردي فقال عن أهل عصره:

كُلُّ أَهْلِ العَصْرِ غُمْرٌ، وَأَنَا
مِنْهُمُ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الجُمَلْ

جرت عادة الناس أن يَذُمُّوا عصرهم، ويَعيبوا زمانهم، وليس هذا بسبيل مقيم، فإن الأزمنة ظروف لأعمال الناس وأحوالهم.. ولستُ أبالغ إن قلتُ: إن زماننا في بعض

---

(١) سورة الأنعام: ٢٨.

أحواله في كثير من بلاد الله خير من أزمنة مضت، فشا فيها الظلم والجهل والفساد.. ظلمٌ لا يُبقي أملاً في صدر مظلوم، وجهلٌ لا تُتقن معه الفاتحة، وفسادٌ يهلك المال والحرث والنَّسْل، ونحن اليوم في عصر لم يمرّ على العالَم مثله في وسائله وإمكانياته وحضارته، كله عجائب، واختراعات، وأحداث.

وكان مَن قبلنا من المسلمين لهم وسائلهم الخاصة في العلم، معظم تثقيفهم في المسجد.. واليوم أصبحت وسائلنا مشتركَة، سيف له حَدٌّ وحَدٌّ وحَدٌّ، وكلها قاطع..

حدٌّ للشُّبهة، وحدٌّ للشهوة، وحدٌّ للخير، والغلبة سِجال، والصِّدق من عوامل النجاح.

لا أُطيل في هذا الاستطراد، فما هو إلا تشويق لـ«**لتفاصيل الجُمل**» الكتاب الذي وضعتُه شرحاً لـ«لامية ابن الوردي»، أقدمه بين يديك مفصَّلاً، سميته «تفاصيل الجُمل» انتزاعاً من آخر بيت فيها، رددت به العَجُزَ منها على الصدر، فكانت أكثر إمتاعاً وأحسن إيقاعاً.

قلت فيها مُلغزاً:

وردِيَّة الخَدّ، كثيرةُ الصَّدّ، أمرها ما بين هَجر واطّراحْ، تهوَى الجِدَّ ولا يعُجبُها المُزاح، مرّ عليها مئات السنين، وهي إلى اليوم لم تبلغ الثمانين، سَحَبتْ أذيال الملامْ، على أترابها من ذواتِ اللاّمْ، لفظها سحر حلالٌ، وإن استهلّت بالاعتزال، إذ انقلبَ خليلها لم تجدْ له في اللسان طَعْما، ولا في العين رَسما، ولا في المقاييس وزناً ولا اسما.

تلك هي غَرَّاءُ ابن الوَردي، وهذا هو شَرحها.. جعلتُه سهلاً سائغاً.. إذ ليس من البلاغة في شيء أن يشرح الكلام بأصعب منه.. أسألُ اللهَ النفعَ والقَبول.

obeikandl.com

ترجمة ابن الوَرْدي[1]

هو عمر بن المظَفَّر بن عمر، زين الدين بن الوردي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صرّح بذلك في قصيدته فقال:

مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى
نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرٍ اتَّصَلْ

ولد عام ٦٨٩هـ، نشأ وتفقّه بحلب، فكان شافعي المذهب، متفنناً في العلوم، ونظمه في غاية الجودة.

وصفه السُّبكي في طبقات الشافعية (٦/٢٤٣) بأنه «أحلى من السكر المكرر، وأغلى قيمة من الجوهر».

ولي القضاء، ثم لم يلبث أن عزل نفسه، ولزم التصنيف، قال في لاميته بعد تجربته تلك:

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب: ٦/ ١٦١، طبقات الشافعية: ٦/ ٢٤٢، الدرر الكامنة: ٣/ ٢٧٣، والأعلام: ٥/ ٦٧.

إنَّ نِصْفَ النَّـــاسِ أَعْدَاءٌ لِمَـــنْ
وَلِيَ الأَحْكَامَ، هذَا إِنْ عَـــدَلْ

وله «ديوان شعر» مطبـــوع، وتـــاريخ يعـــرف «بتـــاريخ ابن الـــوَرْدي»، و«ألفيـــة» في تعـــبير الأحـــلام، وتصـــانيف أخرى، وأنظام كثيرة معظمها في النحو.

توفي عام ٧٤٩هـ رحمه الله.

obeikandl.com

قال ابن الوَرْدي:

١ - اِعْتَزِلْ ذِكرَ الأَغَانِي وَالغَزَلْ
وَقُلِ الحَقَّ، وجانِبْ مَنْ هَـزَلْ

اللغة:

اِعْتَزِلْ: أَمْرٌ مِنَ الاِعْتِزَال، وأصل المادَّة دالٌّ على الانفصالِ والتَّنْحية، وهو من موادِّ القرآن.

الأَغَانِي: جمع أُغنيَة، وهو الكلام بصوت حسنٍ، وأراد المصنِّف نوعاً منهُ ؛ لأنه في الغالب يُطلَق على ما اشتمل على مجون.

والغَزَل: المحادثة في الحُبّ.

وهَزَل: بفتح الزاي، من الهَزْل، وهو ضد الجِد، وهو من باب ضَرَب وفَرِح، وهُزِلَ من الهُزال، وهو الضَّعف من الأفعال التي جاءَتْ على صورة المبني للمفعولِ، وهي مبنيةٌ للفاعل، ومنه قوله:

وَقَدْ هُزِلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا
كُلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

الشرح:

وُفِّق ابنُ الوَرْدي في المطلع لفظاً وموضوعاً، فإنه وصَّى بَوَصَايا وآداب كثيرةٍ، وأراد قبلَ ذلك أن يفرِّغ قلبَك وينقيَهُ من دَنَس المعصية، ورَسِيسِ الفِسْق، ومُجُونِ الهَوَى، وقَوْلِ الزُّورِ، وسائرِ الآفات.

والاعتزالُ بالمَرَّة هو خير دواءٍ لكل المعاصي وأسبابِها من البشر وغيرِهم.

والاعتزالُ واجبٌ على من خَاف على نَفسه ودِينه..اعتزال تركٍ وبُعد.. والمُتَمَكِّنُ الصُّلبُ في دِينه، الثابتُ القويُّ لا يجب عليه ذلك، ولا يُستَحبُّ، ويُباحُ له إن يَئِسَ من إجابةِ من يدعُوه.

وفي القرآن الكريم أنواعٌ من الاعتزالِ وأسبابه، كقصَّة أصحاب الكهف، وإبراهيمَ عليه السلام، ومريم عليها السلام، وفي الصحيح: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ».

وللإمام محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة (٨٤٠هـ) كتابُ «العزلة في آخر الزمان»، أورد فيه خمسين حديثاً في العُزلة، وفضلها في آخر الزمان.

وقولُه -في آخرِ البيتِ-: **وَجَانِبْ مَنْ هَـزَلْ**، أي: من كان هذا شأنَه، أو من كان غالباً عليه، وإلا فمُجَانبة الجِدِّ في بعض الأحيان مما يُعين على الجِدِّ، وفي ذلك أقول:

أرِحْ نَفْسَكَ الغَرْثَى بِشَيْءٍ مِنَ الهَزْلِ
لِيُصْبِحَ عَوْناً لِلْحَرِيصِ عَلَى النُّبْلِ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً.

٢ - وَدَعِ الذِّكْرَى لأَيَّامِ الصِّبَا
فَلأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلْ

٣ - إنَّ أَهْنَا عَيْشَةٍ قَضَيتُها
ذَهَبَتْ لَذَّاتُهَا، وَالإِثْمُ حَلّ

اللغة:

الذِّكْرَى: التَّذَكُّر.

الأيام: جمع يوم، يُطلَق في الأصلِ على النَّهار، ويُطلَقُ على أكثرَ من ذلك، وعلى الزمانِ الطويلِ.

وليس لهذه المادة تصريفاتٌ كثيرةٌ في معانٍ أُخرى.

الصِّبَا: صِغَرُ السِّن، بكسر الصاد، وبفتحها: ريح تَستقبِلُ القِبلةَ.

نَجْمٌ: النَّجمُ إذا أُطلقَ، انصرف إلى المعهودِ، وقد يُطلق على ما نبتَ من الشَّجر بما ليسَ له ساقٌ، وحُمل عليه - عند بعض المفسرين- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[1].

وَأَفَل: غَابَ، وغالب استعماله في النَّجم والكواكب.

أَهْنَا: بتخفيفِ الهمزةِ بعد إسكانِها.

حَلّ: بالمكان يَحُلُّ، بضَمِّ الحاء وكسرِها، وحَلَّ من إحرامه يَحِلُّ بالكسر، وحَلَّ العقدةَ يَحُلُّها: بالضَّم.

وجميع الكلماتِ في البيتينِ مما وَرَد في القرآن.

الشرح:

دَع ذكراك وأشواقَك وحنينَك إلى لَيلى وأخواتِها، وسلمى ولِداتِها، لأيام خلَتْ ومَضَتْ، كنت فيها خَفيف

---

(١) سورة الرحمن: ٦.

الحُلُم، طائشَ العقل..يشير إلى أنَّ هذا لا يصلح من قَويِّ العَزم والإرَادة، فمن وقع في ذلك وهو كبيرٌ، فهو صَبِيّ، ومن جانبه في صباه، فهو كبير، فإنَّ زَمَن الصِّبا قد طواه الدهر ومضى، بحيث لا يدلُّ على بقائِه دليلٌ.

وتَعَالَ لنُفتِّش عن أهنأ ساعةٍ قَضيتَها وتَمتَّعتَ فيها بأحسن ما يُشبِعُ هَوَاك مِن اللّذّات المُحَرَّمة، هل بقيت لذتُها مَعك إلى هذهِ السَّاعة؟ هل جاوزت مُتعتُها تلكَ اللحظةَ التي قَارفتَ فيها..؟ لا لم يبقَ في قلبك إلا حَسرةٌ، إن كان فيه بقية من ذَماء ونبضةٌ من حَياة ؛ للإثم الذي كتب عليك، واسودَّت به صحيفتُك..والحَسرةُ غُصَّة وعَنَاء، ولو وُضعت في كِفة، وسائر اللذائذ المحرَّمة في كِفة، لأطارتها الحسرة في الهواء ولو كان مَعَها زُبرُ الحديد. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[1]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦.

(٢) سورة البقرة: ١٦٧.

٤ - وَاتْـرُكِ الـغَادَةَ لاَ تَـحْـفِلْ بِهَا
تُمسِ فِي عزٍّ وَتُرْفَعْ وَتُجَـلْ

اللغة:

الغادة: الفتاة التي تتثنى في مشيتها وتميل.

لا تحفل بها: لا تجمع همَّك من أجلها، أصل معناه: الجمع، ومنه حفل الناس، والشاة المحفّلة.

الشرح:

الغرام من آفات العقل والقلب والعلم والدِّين، وهذه الأربعة هي أعلى وأجلّ من أن يُلعبَ بها، غير أن مسالك المحبة دقيقة، تنفذ دواعيها إلى المُحِبّ على حين غفلة، فتصرعه، فلا يبقى له حِراك.

والدواء الأول هو الترك والابتعاد عنه، وعدم الاحتفال به، والسلوّ عنه بالاشتغالِ بما ينفع، بذلك يرتفع المرء عن الدنايا ويجل عن الرذائل، ويمسي عند نفسه وغيره عزيزاً.. فالحُب داعٍ إلى الذِّلّة والقِلة والعِلة، ألم تسمع إلى قول ذلك الذي صادته صائدة القلوب، حتى بلغ درجة العبودية، وشرف بالانتساب لها..

لاَ تَدْعُنِي إِلاَّ بِيَا عَبْدَهَا   فَإِنَّهَا أَشْرَفُ أَسْمَائِي

وفي المقابر من لا يحصى من ضحايا الحب الهالكين، بلا دية ولا قود.

وأمر النساء إحدى آفتين، رأيتهما أسرى شيء في ضياع طالب العلم. والثانية: الاشتغال بالسياسة والاستغراق في تفاصيلها بالتحليل والتنظير والترجيح والنقاش، ثم الجزم بحصول النتائج، بناءً على المقدمات، فيخبط خبط عشواء، ويهيم في كل واد بالظنون والمُيُون، فيخرج من نور العلم وضوابطه إلى مسارح بلا روابط، وكان يكفيه من ذلك معرفة الحال، وأقوال أهل الرأي والمعرفة.

٥ - وَالْهَ عَن آلة لَهْو أطْرَبَتْ

وَعَن الأمردِ مُرتجِّ الكَفَلْ

اللّهو: معروف، وهو كاللّعب، إلا أنه يجمع معه اللّذة والمتعة، كما قال أبوالطيِّب:

لِلَّهْوِ آوِنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا   قُبَلٌ يُوَدِّعُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ

ويخصه قوم من العَرب بالولَد، وآخرون بالزوجة، وبذلك فسر اللّهو في قوله عَز وجلّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾[1].

أَطْرَبَتْ: حَرَّكَتْ فيكَ مشاعرَ الوجدانِ.

الأَمْرَد: من (مرد)، وهي مَادة تدلُّ عَلى الملاَسَة والتجريد، ومنه المارِد، والخيلُ المُرد، والصَّرح المُمَرَّد، والأمرد من الرجال: من لم ينبُت له لِحيَة.

مُرتَجّ: الارتجاجُ: الاضطرابُ.

الكَفَل: بفتحِ الكافِ والفاءِ: العَجُز، ومادة الكَافِ والفاءِ واللاَّمِ، أَصْلٌ يدلُّ على حِمْل وثِقَل.

الشرح:

اشتغل - أيها الإنسان- عن كُلِ ما يشغَلُك من أنواع اللّهو وأسبابه، فما هي إلا لواعِج تحركُ النفسَ والمشاعرَ، وتهيِّج الغَزيرةَ والعواطِفَ، فيستجيبُ لها -إثر ذلك- الأعضاءُ والجوارحُ متى وجَدَت بغيتَها، وحَصَّلت

---

(١) سورة الأنبياء: ١٧.

مطلوبها، أو تَهمدَ فتفعلَ فعل النَّارِ التي تأكلُ نفسَها إذا لم تجدْ ما تأكلُه.

ولما كانت الفتنةُ حاصلةً من المَسْموع والمشَاهَد، عَقَّب بصنفٍ من النوع الآخَر، وخصَّه بالأمر؛ لما فيه من الفُحش والخروجِ عن الفِطرة.

وقوله: **مُرْتجّ الكَفَل**: نوع من الوَصف والتّرشيح، أراد به التحذيرَ، فوقع في ضدِّه، وقد كانَ في غُنية عن ذكر هذا المعنى وعن البيت الذي بعده، وهو:

٦ - إن تَبدَّى تنكسِفْ شَمسُ الضُّحى

وإذا ما مَاسَ يُزْرِي بالأسَلْ

اللغة:

تنكسِف: الكُسوفُ: كلمة تَدلُّ على التَّغَيُّر، ومنه: كُسوفُ الشَّمسِ والقمرِ وهو ذهابُ ضوئهما.

ماس: المَيسُ: التَّبختُر والميلانُ في المَشي.

يزري: الإزراءُ بالشيء: التهاونُ به.

الأسل: الرِّماح؛ لدقَّتها.

الشرح:

تمادَى ابن الوردي في وصف مَا نهى عنه وَزَجر، ووصفَه بالجمال البديع، الذي يُخجل الشمسَ أنصعَ المخلوقاتِ وأقواها نوراً وضياءً. والعرب تُشَبِّهُ الوجهَ بالشَّمسِ، وتَستعيرُها للجَمَال والبَهَاء، فإذا قالت: شمسُ الضُّحى، كان ذَلك أبلَغَ ؛ لأن الشَّمسَ في وقتها على أحسنِ صُورة ؛ لأنها في الإشراق والغروب مُصفرَّة، وفي الظهيرة زائدة السطوع مَع حَرارة، وفي آخر النَّهار مُدبرة، وأما في الضحى فهيَ بيضاءُ مقبلةٌ هادئةٌ، تلاعبُ أشعتُها ورق الشَّجر وَأَغْصَانَه، ويتسلَّل لعابُها من بينِ فَتَحات المنازِل وشُقوقِ الجُدْران، فتكوِّنُ خُيوطاً طويلةً عريضةً من ذرات الأرض وهبائها وتَتَحرّك تحرُّكَ السحابِ، وهو ما تُسمِّيه العربُ: لُعابَ الشَّمس.

ثم زاد في تَوصِيفِه، فقال: إنه يمشي مِشيةً فاتنةً باعثُها الاعتزاز بجَماله وحُسنِ قوامه، وثقتِه بإعجاب من ينظر إليه. ثم قال:

٧ - زاد إن قِسناه بالبدرِ سَناً
أَوْ عَدَلْنَاهُ بِغُصْنٍ فَاعْتَدَل

اللغة:

قِسناه: القياسُ: تقديرُ الشَّيء بالشيءِ، والمرادُ: شَبَّهنَاه.

سَـــناً: بالقصر: اللَّمَعان، والمدِّ: الرِّفعةُ.

عدَلْنَاهُ: سوَّيناهُ.

الشرح:

يقول: بَلَغ جمالُ ذلك الموصـــوف مبلغـــاً بحيـــثُ يفـــوقُ جمالُه وحُسنه القمرَ الممتلئَ الـــذي يكـــونُ في التَّمـــام علـــى أحسَنِ ما يكونُ في بهائه وطلعته، وهو قريـــب ممـــا ســـبق في الشمس.

وهو في قَوامِه واعتداله مثلُ الغُصنِ الطويلِ الريَّـــان، بـــل يفوقُ الغصنَ في اعتداله واستقامته.

ثم قال:

٨ - وافْتَكِرْ فِي مُنْتَهى حُسنِ الَّذيْ
أَنْتَ تَهْـــوَاهُ تَجِدْ أَمْراً جَلَـــلْ

وَافْتَكِرْ: ابعَث الفِكر علَى التَّذَكُّرِ.

تَهواه: من هوِيَ يَهْوى، بكسر الـــواو في الماضـــي وفتحهـــا في

المضارع، كأنهم رأوا أن الهَوى يرتقي من أسفلَ إلى أعلى، واللّغة العربية فيها من مثل هذه المعاني الدَّقيقة التي يُراعى فيها الشَّكل والتصريف كثيرٌ. ألا ترى أنهم قالوا في السقوط: هوَى يهوِي، فبدءوا بالحركة الفوقية ؛ لأن السقوط من أعلى، وانتهوا بالحركةِ السُّفلية مراعاةً لذلك؟

جَلَل: من الأضداد، يُطلق على الحقير والعظيم، والمرادُ -هنا- الأوَّل، والأصل أن يقول: جَللاً، ولكنه حَذَف الألفَ للرَّويّ، وهو أيضاً لغة ربيعة ؛ لأنهم يقِفون على المنصوب المنون بحذف الألف، وأشرت إلى ذلك في «ما هَبَّ ودَبّ»، فقلت:

وَقْفُ رَبِيْعَةَ بِحَذْفِ الأَلِفِ وَالثُّومُ: مُذْهِبٌ لِحَبِّ الكَلَفِ

الشرح:

ما أحسنَ هذا البيت!

يقول: تذكَّر في مُنتهَى ذلكَ الذي زَرَعَ الصَّبابَةَ في قلبِك وفتَنَك بجَماله، أتظن ذلكَ الغصنَ الرَّطيبَ سوفَ

يبقى على حاله أخضر ريّان؟ كَلاَّ! كَـلاَّ! سـوف يعـود إلى نهايته المحتومَة ذابلاً يابساً خشِن الملمَـس، وكـذلك الجسـمُ الجميلُ، والقوامُ الفاتن نهايته خَوَرٌ وضـعفٌ وشَـيبَة.. شَـعْرٌ أبيض، وعظم واهن، وجلـد يـابس، وجفـافٌ في العـين، وتنكيسٌ في الخَلْق، وأَنَّات كثيرة، وبصـر ضـعيف، وضـعفٌ في البصيرة، ورعشةٌ في الأطـراف، وتَهالـكٌ في الأعصَـاب، وغيرُ ذلك مما لا يُذْكَر، هذه نهايتُه وهـو حَـيّ، فـإذا مـاتَ فنهايتُه أوضحُ وأجلى.

والحاصلُ أنَّ من تذكَّر نهايةَ كلِّ شَـيء في الـدُّنيا نَغَّـصَ ذلك عليه عيشَته، ولَم يصْفُ له إلا العملُ للآخـرة ومـا والاه، فإن كلَّ نَعيم في الدنيا زائلٌ بزوالـه عَنـك، أو بزوالـك عنـه، وقَد وصَفَ اللّه الدُّنيَا بأنها لعبٌ ولَهْوٌ وزينـةٌ وتفـاخرٌ وتكـاثرٌ، أي: لَعب كلعبِ الصِّبيان، ولهوٌ كلهوِ الفتيـان، وزينـةٌ كزينـة النسوان، وتفاخرٌ كتَفَاخر الشُّجْعان، وتكَـاثر كتكـاثرِ التُّجَّـار والدِّهقان، كما قال مَن قال مـن أهـل التفسـير.. ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَكُونَ حُطَـٰمًاۗ﴾[1]، و«الكُفّار» في الآيـة بمعـنى: الـزُّرَّاع ؛ لأنهم يكفرون الحَبّ.

إذا ذَوى الغُصنُ الرَّطيبُ فاعلمَنْ أنَّ قُصارَاهُ نَفَـادٌ وتَـوَى

٩ - واهجُرِ الخَمْرةَ إن كنتَ فتًى

كَيفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ؟!

وَاهْجُر: الهَجر: تركٌ بالكلية، وأظنَّه تركاً بعد ملابَسة.

الخَمْرة: بالفتح: الخمر، وبالكسر: الخِمار.

الشرح:

هذه وصيةٌ أخرى يأمرُك فيها بحفـظِ العَقْـل، باجتنـاب ما يُذهبُه عَنك، فتصبحُ مشـاركاً للحيـوان البـهيمي الَّـذي لا عقل لَهُ ولا تَمييز، بل تزيـد عليـه بإحـداث حَركـاتٍ وأقوالٍ لا مَعنى لها إلا السَّفَهُ وذَهـابُ الحُلُـم، ومـن يسـعى إلى إهلاك عقله، وذهاب لُبّه ففي عقله شيء.

قال ابنُ حزم في كتابه «الأخلاق والسِّيَر» ص ٢٨:

---

(١) سورة الفتح: ٢٠.

«ما رأينا شيئاً فسد فعاد إلى صحته إلا بعد لأْي، فكيف بدِماغ يتوالى عليه فسادُ السُّكْر كل ليلة، وإنّ عقلاً زيَّن لصاحبه تعجيلَ إفساده كُلَّ ليلة، لعَقْلٌ ينبغي أن يُتَّهَم».

١٠ - واتَّقِ اللّهَ فتقوى اللّه مَا
جَاوَرت قَلبَ امْرئٍ إلا وَصَلْ

١١ - لَيسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرْقاً بَطَلاً
إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ البَطَلْ

الشرح:

الوصيةُ بالتَّقوى وَصِيةٌ جامعةٌ، وهي كَما رُويَ عن عَليٍّ: الخوفُ من الجَليل، والعَملُ بالتَّنزيلِ، والرِّضى بالقليل، والاسْتعدادُ ليوم الرَّحيل، وهي المنجيةُ التي ما تشرّب منها قلبٌ إلا ملأتهُ نُوراً وبرهاناً وضياءً، ووَصَلَ بِها صاحبُهَا إلى مَنازِل الأعلَين.. والمُتَّقي هُو الإنسانُ الحقيقيُّ الذي يُحقِّقُ عزة نَفْسه عند نفسه بانتصاره عليها وغَلَبته على هواهُ، وهو البطَلُ الحقيقيُّ لا الذي يقطعُ المفاوزَ والقِفَار، ويجوبُ البلادَ والفدافدَ، فهذا متشبهٌ

بالسِّباع والوحوش، وفي صغارها ما هو أعدى منه وأقطع..والمُتَّقي متشبِّهٌ بالملائكة في سُمو روحِه ورفعةِ نفسه ومكانته، إذ بَعُدَ عن الرزايا والدنايا. ومن لا يهمه رأي نفسه في نفسه هو إنسانٌ ساقِط المروءَة، سيئ المَلَكة، ضعيف الهِمّة.

والحاصل: أن البطولة تكونُ بالانتصار، وكل انتصار بحسبه، وانتصار المرءِ على نَفْسه أمتعُ البطولات وأعلاها وأغلاها، ومن حكيم الشِّعر:

إِنَارَةُ العَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطَوْعِ هوىً
وَقَلْبُ عَاصِي الهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرَا

وقال ابن دُريد:

وَآفَةُ العَقْلِ الهَوَى، فَمَنْ عَلاَ عَلى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدَ نَجَا

١٢ - صَدِّقِ الشَّرْعَ وَلاَ تَرْكَنْ إِلَى
رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ زُحَلْ

الشرع: الشَّرع والشريعةُ والدينُ والصِّبغة والمِلةُ، يرادُ بِهَا شيء واحد، وفي نظم المترادِف:

كالدِّين: شَرْعٌ شِرْعَةٌ شَرِيعَة وَصِبْغَةٌ وَمِلَّةٌ مَنِيعَةٌ

لاَ تَرْكَنْ: لا تعتمد، أخذَ من اعتماد الإنسان على رُكن البيتِ في جلوسه.

يَرْصُدُ: يرقبُ.

زُحَلْ: أحد الكواكب السَّبعة (القمر، والزُّهرَة، والشَّمْسُ وعُطارِدُ، والمُشتَري، والمَرِّيخُ، وزُحَل).

جمعها من قال:

زُحَلٌ شَرَى مَرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فتَزَاهَرتْ لعُطَارِدَ الأقمارُ

الشرح:

صدِّق ما جاء به رسولُ الشَّرع فيمَا أخبَر به، وأَمَر وَنَهى وَلاَ تَرْكَنْ إلى أقوال المُنجِّمين والكُهان وكلِّ أفاكٍ أثيمٍ، يَزْعُمُ أَنَّ للكوَاكبِ تأثيراً ذاتياً في الكَونِ، يستدلون بأشياءَ، فيَصْدُقون في واحدة، ويكذبون في تسع وتسعين، ولقد فضحت الأزمانُ مخاريقَ المُنجِّمين، ومن ذلك ما ذكَره المؤرِّخون عنهم أنهم حَكَموا بخَرابِ العالَم في جميع الأرض بأعظمِ ريح، فَفَزِع من صدَّقهم من طَغَامِ الناس وأوباشهم، وهم الأكثرُ، وَهرعوا إلى إعداد الأزوادِ وحَفْر المغارات، وكان ذلك عام ٥٨٢هـ، فمرّ العالَم

بسلام و لم يتغير شيءٌ مما قالوا، وزعموا أن ذلكَ الخراب سوفَ يحصل بسببِ اجتماعِ الكواكب في الميزان..وقد جاء ذمهم في آخر سُورة الشعراء، وَفي الأحاديث الصحيحة.

١٣ - حَارَتِ الأَفْكَارُ فِي قُدْرَةِ مَنْ
قَدْ هَدَانَا سُبْلَنَا عزَّ وَجَلّ

حَارَت: الحَيرة بفتح الحاء: أن يقف التفكير، فلا يستطيع العقل أن يحكُم ولا يُميِّز.

سُبْلَنَا: بإسكان الباء، هو لغة، قُرئَ بها في السَّبع، مُفردُها سَبيل، يُذكَّر ويؤنَّث، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ (١)، وقال: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ (٢).

عَزَّ وجلّ: فعلان ماضيان، من العِزَّة والجلال.

الشرح:

هذا حثٌّ مبطَّن على التَّفكير في متعلَّقات القُدرة، وإخبارٌ عن عَظَمة الله وقدرته التي مَن تفكر فيها

---

(١) سورة يوسف: ١٠٨.

(٢) سورة الحجر: ٧٦.

دُهشَ وتحيَّر وردَّه ذلك إلى تسبيحِ الخالق، وتعظيمه وتمجيده.. ومن قُدرته أنه يهدي مَن يشَاء، ويضلُّ من يشاءُ، والحمد لله الذي هدانا سُبُلَنَا ووفقَنا إلى صالح العمل.

١٤ - كُتِبَ المَوْتُ عَلَى الخَلْقِ فَكَمْ
فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِن دُوَلْ

١٥ - أَيْنَ نَمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ
مَلَكَ الأرضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ؟!

١٦ - أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ
رَفَعَ الأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ؟!

١٧ - أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا
هَلَكَ الكُلُّ فَلَمْ تُغْنِ القُلَلْ؟!

١٨ - أَيْنَ أَرْبَابُ الحِجَا أَهْلُ النُّهَى
أَيْنَ أَهْلُ العِلْمِ وَالقَوْمُ الأُوَلْ؟!

١٩ - سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلاًّ مِنْهُمُ
وَسَيَجْزِي فَاعِلاً مَا قَدْ فَعَلْ

اللغة:

فَلَّ: ثَلَمَ، وسَيف مفلولٌ: مثلومٌ.

نَمْرُوذُ: بالذال -معجمةً ومهملةً- بنُ كَنعان، من ولد حَام بن نوحٍ، والمشهور أنه هو الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه.

كَنْعَانُ: أبو النمروذ المتقدم نَسَبُه.

عاد: يقول الإخباريون: هو عادُ بن عَوصِ بنِ إرمَ بن سامِ بن نوحٍ.. رُزق كَثيراً من الولَد، وهو عاد الأولى، والثانية من وَلَده شَدَّادِ بن عاد، وكان لكل منهما مُلكٌ عَظيم، وإليهمَا أُرسلَ هُودٌ عليهِ السَّلام.

فِرْعَوْنُ: هو صاحبُ موسى، وقد اشتَغل أهل التواريخ والتفسير بالبحث عن اسمه، والاختلافِ فيه، بما لا يزيد فائدةً يحسُن السكوتُ عليها.

الأَهْرَام: جمع هَرَم، باقية إلى يومنا هذا بالجيزة في القاهرة تُعد من العجائب السبع، قيل: بَناها سِنان ابن المُهَلْهَل مع العمالقة، وقيل: غيره.

أَرْبَاب: أصحاب.

الحِجا: العَقْلُ، وكذلك الحِجر -بكسر الحاء- والنُّهية، والحَصَاة، واللُّبُّ.

النُّهَى: جمع نُهْيَة -بضم النون- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[1].

شَادُوا: بنَوْا قصورهم بالشِّيد، وهو الجَصّ، وهو لفظ قرآني في بعض تصريفاته.

القُلَل: جمع قُلَّة، ما علا من القُصورِ.

الشرح:

الموت قضيةٌ كُتبت على الخَلق لا تَقبل الاستثناء، وقد حَسَمها القرآن في أكثرَ من آية بأساليبَ مختلفة، قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾[2]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾[3]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) سورة طه: ٥٤.

(٢) سورة الرحمن: ٢٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥، والأنبياء، والعنكبوت.

وَجۡهَهُۥۚ﴾ [1]. والموت لُغْزٌ حيَّر الألباب، وعَجَزت فيه جَميع الحِيل، فكم من جموع فرقها شذَر مذَر، وشغَر بَغر، وكم من عروشٍ هدّها، ودولٍ ثَلّها، وأحباب فرَّقهم، وأصحاب شتَّتهم، لا ينجو منه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا غني ولا فقيرٌ، ولا عزيزٌ ولا ذليلٌ، ولا مِلك ولا مملوكٌ، ولا سيدٌ ولا مسُودٌ، يقول طَرفة بن العَبْد الشاعر الجاهلي المشرك:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى
لَكَالطِّوَلِ المُرْخى وَثِنْيَاه بِاليَدِ

الكُلُّ في حكمِ الموتِ سواءٌ سواءٌ، أقرب شيء إلى الناس وهُمْ في حالهم أبعد ما يكونُ عنه، لَهم فيه خير وإن أبغضُوه، ولو بقي الناس بلا موت لما وسعتهم الأرض، ولا زداد بغيهم وفسادُهم، و لم يكن لكثير من المكارِم معنى.

وَلاَ فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى
وَبَذْلُ النَّدَى لَوْلاَ لِقَاءُ شَعُوبِ

---

(١) سورة القصص: ٨٨.

ويقرِّر ابن الوردي هذه المسألة بطريق الاستفهام، الذي يَحملُ المخاطَب على الإقرارِ وعدمِ الإنكارِ، بذكر الطُّغاة والجبابرة وأُولي البأس من أهل القرون الأولى، والزمانِ الغابر، أمثال عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ، والنمرودِ، وكنعانَ، وهامانَ، وغيرهم ممن مَلَكَ الأرضَ، أين هؤلاء؟ هل بَقيَ لهُم من أثرٍ أو عِثْيَر؟ هل ترى لهم من باقيةٍ؟ هَلكوا أجْمعين أبصعين، ولا تحسُّ منهم أحداً، ولا تسمعُ لهم صوتاً ولا ركزاً ولا رِزاً ولا حِسّاً، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، ولم تُغْنِ عَنهم أموالهم من شيء ولا قصورهم، ولم ينتفع أهلُ العقولِ والعلوم بعلومِهم ولا عقولِهم، ولم يحُل بينهم وبين الموت حائِل، ولا يمكنُ رجوعُهم إلى الدنيا، فغائب الموت لا يئوبُ، وسيبعثهم الله جَميعاً، فينبئهم بما عملوا، أحصاه الله ونسوه.

---

(١) سورة الدخان: ٢٩.

٢٠ – أيْ: بُنيَّ اسْمَعْ وصايا جَمعَتْ
حِكَماً خُصَّتْ بِهَا خَيرُ المِلَلْ

٢١ – اطلُبِ العلمَ ولاَ تَكْسَلْ فَمَا
أبعدَ الخَيرَ على أهلِ الكَسَلْ

٢٢ – وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ، فَمَنْ
يَعْرِفَ المَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

٢٣ – وَاحْتفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلاَ
تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوَلْ

٢٤ – لاَ تَقُل قد ذَهبتْ أَربابُهُ
كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

بُنَيَّ: تصغير ابن، ويجوز فتح الياء وكسرها وإسكانها.

وَصَايَا: جمعُ وصية، وهي ما يقدّمه الإنسان إلى غيره بحِرصٍ ؛ ليُؤخذ عنه، سواء كَانت كَلاماً أو غَيره.

حِكَماً: جمع حِكمة، مأخوذٌ من الحَكَمَةِ التي تكون بجبلي الفرس في اللّجام، يُكبح بها جِماحُه، والأصل في معناها: المنع.

قال الشاعر:

أَبَنِيْ حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكُـــمْ
إِنِّي أَخافُ عَليكـــمُ أَنْ أَغْـــضَبا

وَلَهَا معان مُـــرادة، منـــها: العلـــم، والحلـــم، والعـــدل، والبُنوة، والإنجيل، والقرآن.

وَاحْتَفِلْ: اِجْمَعْ هِمَّةَ نَفسك.

وَخَوَل: لَفظٌ يُستعملُ لِلمفرَد وغيرِه، والمـــذكَّر والمؤنَّـــث، وهـــي النَّعَم التابعةُ من الناسِ كالعبيد والإماء والخَـــدمِ ونحـــوهم. وفي الصحيح: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُم».

أَرْبَابُهُ: أصحابُه.

الدَّرْبُ: البابُ الكبيرُ الواسعُ الطَّريق.

الشرح:

هذه وصيةٌ لطالـــب العلـــم، عليـــه أن يحفظَهـــا حفـــظ الأعمى، ويحرص عليها حرصَ الشَّـــحيح، وأن يعَـــضَّ عليهـــا بالنواجذ، وهي وصيةٌ جليلة، مُشرَبة بلبان الحكمـــةِ في ثَـــوبٍ من البلاغة جميلٍ، وخيرُ الشِّعْر ما كان حكمةَ صِـــدْق، قَـــدَّم الشاعر التَّنبيهَ عَليها بخطابِ الإيقـــاظ، المصـــحوبِ بالتَّـــدليل،

المخوف بالترغيب، المُختَتَم بالتشويقِ بأنَّ هـذا ممـا خُصَّـت به ملةُ الإسلامِ، وهذهِ الأمة، فإن علم هذه الأمة مسنَدُ.

فكانت أُولى الوصايا:

اطلُب العلم الذي هو حياة النفـوس، وغـذاءُ الألبـاب، وقرينُ الإيمان، وأهلُه قرنـاءُ الملائكـة، المتصـفُون بالخشـية وخوفِ الخالق عَزَّ وَجَل، وبـه يفضُـل كـلُّ شـيءٍ علـى سِواه من نوعه، حتى الكلابُ المعلَّمةُ لهـا فضـلٌ علـى غـير المعلَّمة.

ولما كـان مـن آفـاتِ الطلـب: الكسـلُ، بـادَر إلى التحذيرِ منه، فإن العلمَ والكسل لا يجتمعان، وقـد يرتفعـانِ، وذلك أن الغاياتِ الـتي يفضـل بهـا النـاسُ في الـدنيا وفي الآخـرة لا تحصـلُ بـالتواني والكسـلِ وإعطـاءِ الـنفس ما تشتهي، بل لا بُد من الجِدّ.

فالجنة حُفّت بالمَكـاره، والمجـدُ لا يُبلـغ إلا برُكـوب الصِّعاب والمعاناة، وما أبعـدَ العلـمَ علـى أهـلِ الكسـلِ والتـواني وصِـغار الهِمـم، والعلـمُ لا ينـال إلا بـالطموح والاستعداد النفسي والذهنيّ، وللشافعي في ذلك بيتان:

أَخِي لَنْ تَنَـالَ العِلْـمَ إلاَّ بِسِتَّـةٍ
سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَـانِ
ذَكَاءٌ، وَحِرْصٌ، وَاجْتِهَادٌ، وَبُلْغَةٌ
وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَـانِ

أما النوم فهو آية من آياتِ الله، ونعمة من نعمه، جعله الله راحةً للأبدان في الليل والنهار، لا حياة للمرء بدونه، يفقد الإنسان فيه حواسّه إلا السمع، ولهذا اختتمت آية النوم بالإشارة إلى هذا، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

والنوم قليلة مُضِر، وكثيرة مُضِر ؛ لأن كثرته تؤدّي إلى ترسُّب المواد الدهنية في الشرايين، والطبيعيُّ ما بين أربع ساعات إلى تسع، ويعرف الإنسان كفايته من النوم حينما يستيقظ مرتاحاً نشِطاً، ويغلب على النوَّام السَّذَاجة، والبساطة، وضعف الطموح.

---

(١) سورة الروم: ٢٣.

وللنوم أسرار وخفايا، وأحوال فيه عجيبة، ذكرتُ شيئاً من ذلك في «المقامة السُّهادية» في كتاب المقامات.

وابن الوردي لم يُرِدْ هجره مطلقاً، بل أراد الحَث على الجدّ واطّراح الكسل، والتنبيه على قيمة الوقت الذي هو الحياة بعينها، ولا يجازف بحياته عاقل، فليكن طالب العلم أبخل الناس بوقته، وأضَنَّهم بساعاته.. إن من أوقاتنا -معشر أهل العلم- ما يُنزع منا نزعاً، ويستفرغ منا بالقوة، يطير به من بين أيدينا من لا يعرف ثمنه، ولا يقدِّر قدره.. ومن عرف غاية وجوده، ملأ ظرف زمانه بنفيس الجوهر وكريم الدُّر، من شريف العلم، وصحيح العمل.

ومن أهم العلوم علمُ أحكام الشريعة، المستنبَطَةِ من الكتابِ والسُّنّة، وفي الصَّحيح: «مَنْ يُردِ اللّهُ بِه خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» وهو العلم الذي يَحتاج إليه كلُّ أَحد، فما من أحد إلا يتعلق بأمره حكم شرعي يشارك فيه الأمة أو بعضها، وقد يكون التصدر فيه مما يُقرِّب إلى الدنيا، ويجلب المالَ، والرُّتب الرفيعة، ولذلك نبّه الشاعر إلى ترك الاشتغال عنه بمثل هذا. يقول ابن ونَّان في الحث على درس الفقه والحديث:

وَخُصَّ عِلْمَ الفِقْهِ بِالدَّرْسِ وَكُنْ
كَاللَّيْثِ أَوْ كَأَشْهَبٍ والعَتَقِيْ

وَفِي الحديثِ النَّبوِي إِن لَمْ تَكُن
مِثْلَ البَخَارِيِّ فَكُنْ كَالبَيْهَقِي

وقد يكون من العوائق التي يضعها الشيطان أمام طالب العلم زرع اليأس من إدراك ما أدركه السابقون، فيقول: ذهب أهل العلم وزمانهم، وهذا زمان سوء وصبر، وفسد الناس جميعاً والزمن، وذهب الكرام بأسرهم.

يقول ابن الوَردي في الجواب عن هذا: لا تقُل قد ذهبت أربابه.. فكم ترك الأول للآخر، ولا فرق بين الزمان والذي قبله إلا بكثرة الفتن والصوارف وضعف الفهم واختلاف الوسائل، وأما العقول فهي العقول..

فسِرْ -أيها الطالب- في طريق العلم الذي يُسهِّل لك طريقاً إلى الجنة، فكلُّ سائر على الدرب واصِل، وأول السيل قَطرة وأول السير خَطرة.

وللشافعي في طلب العلم أبيات حسانٌ:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُـلُومِ أَلَـذُّ لِي

مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيْبِ عِنَـاقِ

وَتَمَايُلِي طَرَباً لِحَـلِّ عَويصَـةٍ

أَشْهَى وَأَحْلَى مِن مُدامة سـاقِ

إلى أن قال:

أَأَبِيـتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيتُـهُ

نَوْماً وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لَحَاقِـي

٢٥ - فِي ازْدِيادِ العِلْمِ إِرْغَامُ العِدَا

وَجَمَالُ العِلْـمِ إِصَلاَحُ العَمَـلْ

٢٦ - جَمِّلِ المَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَـنْ

يُحْـرَمِ الإِعرابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَـلْ

٢٧ - وَانْظِمِ الشِّعْرَ وَلاَزِمْ مَذْهَبِي

فِي اطِّرَاحِ الرِّفْد..فَالدُّنْيَا أَقَـلْ[1]

---

(١) في بعض النسخ: لا تبغ النحل.

٢٨ - فَهْوَ عُنْوَانٌ عَلَى الفَضْلِ وَمَا
أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَـذَلْ

٢٩ - مَاتَ أَهْلُ الفَضْلِ[1] ، لَمْ يَبْقَ سِـوَى
مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الأَصْلِ اتَّكَلْ

اللغة:

إرغام العِدا: إذلال الأعداء، والإرغام..مأخوذ من الرِّغام، وهو التّراب، كأن المرغم وُضِعَ أنفه فيه إذلالاً له.

جَمِّلْ: حسِّن.

النَّحْو: علم الإعراب.

الإِعْرَاب: الإفصاح.

اخْتَبَلْ: أصابه خبال، أي: حيرة تفسد عليه الإصابة في القول.

الشِّعر: ضرب من الكلام موزون مقفّى.

---

(١) في بعض النسخ: الجود.

اطّراح: ترك.

الرِّفْد: بكسر الراء: العَطاء.

عُنْوَان: شِعار، وفيه لغتان أُخريان، إبدال النون لاماً أو الواو ياءً.

مُقْرِف: دنيء.

اتَّكَلْ: اعْتَمَد.

الشرح:

تحصيلُ المعالي مما يرغم الكاشح والعدوّ ويعذّب الحاسد، وأشرف المعالي وأغلاها وأعلاها ما قرّبك من الخير والإيمان، وحصل به الرِّفعة في الدُّنيا، وللعلم من ذلك حظ وافر، إذا حصله المرء طلباً للدّنيا حقق له ذلك بقدر جهده وحيلته، وإذا حصله للآخرة وثبت على الصدق في العزم تحقق له أمر الآخرة والدنيا، ومن ذلك حسن الذكر والشرف.

وتمر بالناس أوقات تراهم فيها راغبين في العلم محبين لأهله متشبهين بهم، ثم لا يلبثون أن يكفوا عنهم راجعين، كأنما نزعت تلك الرغبة من قلوبهم، وترى منهم من ينتقل

في طبقات أهل العلم بحسب المصلحة، وإقبال الدنيا عليه، فإذا أدبرت راح إلى طبقة أخرى...

والعلم كالحديقة ذات الظلال الوارفة والأشجار الخضرة، فإن حفّها من جوانبها زهر الورد، ونور الأقحوان وفاح منها روائحها الزاكية زادها ذلك جمالاً وحسناً، وكذلك إذا اجتمع العلم والعمل وحسن الأدب.

اللسان العربي أعذب الألسنة، ولا يكمل له جماله إلا بالإعراب والقانون النحويِّ، والنحوُ واحد من العلوم الضرورية التي يجب أن يدرسها طالب العلم، وهو علم محدود لا يقبل التوسع ؛ لأنه يخضع لقوانين محدَّدة وضعها السابقون، وإنما يقبل الزيادةَ والتوسعَ من العلوم ما كان فيه إبداع وخيال، أو كان فيه قابلية التغيير بحسب ما تطلبه الحضارة والأزمان، وعلمُ النحو ليس كذلك ؛ لأن قواعده مأخوذةٌ من نصوص لا نملك التبديل فيها ولا التعديل، وهي القرآن، ونصوص الشعر والنثر التي يُحتَجّ بها، وما من عالم في عصور التصنيف إلا تعلم النَّحو، إلا أن يكون علمه لا يحتاج إلى قواعده كالرياضيات والطب وغير ذلك، وإلا فلا ثقة بعلم من لا يعرف الإعراب، وهو ساقط من أعين النبلاء، كما قال الشاعر:

وَيُعْجِبُنِي زِيُّ الفَـــتَى وَجَمَالُـــهُ
وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيَّ سَاعَةَ يَلْحَنُ

وكما قال الآخر:

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسانِ الأَلْكَنِ وَالمَرْءَ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

وقال بعض الظُّرفاء:

كُلُّ فَتًى شَبَّ بِلاَ إِعْـرَابِ فَذَاكَ عِنْدِي مَثَلُ الغُـرَابِ
وَإِنْ رَأَيْتَـــهُ لِخَود عَاشِـقًا
فَقُلْ لَهَا: دَعِ الغُرَاب النَّاعِقَـا

وصدق ابن الوردي: مـن حُـرِمَ الإعـراب والإفصاح في نطقه، تحيّر وتجمجم.. وقد يتغير المعنى بسبب تغير الإعراب، وإذا رأيت من يذم تعلم النحو، فاعلم أنه عسر عليه، كما عَسُر على ذلك الأعرابي الذي جلس في بعض حِلق النحو، فلم يفهم منه شيئاً، فأنشأ يقول:

سَأَتْرُكُ النَّحْوَ لأَصْحَابِهِ وَأَصْرِفُ الهِمَّـةَ فِـي الصَّـيْدِ
إِنَّ ذَوِي النَّحْوِ لَهُم هِمْـ ـمَةٌ مَوْسُومَـةٌ بِالمَكْرِ وَالكَيْدِ
يَضْرِبُ عَبْدُاللَّهِ زَيداً وَمَا يُـرِيدُ عَبـدُاللَّهِ مِـنْ زَيْـدِ

ولا نرى مع ذلك أن يُفني الطالب فيه العُمُر ؛ لأنه علم آلة، يُتعلم لغيره لا لذاته، وحسب الطالب من ذلك فهم «ألفية ابن مالك»[1]، وما في معناها.

وأما نظم الشعر فهو من جمال الكمال، وكمال الجمال، وابن الوردي لم يقصد نظم الشعر العلميَّ وحده، بل قصد نظم الشعر مطلقاً، وهو يزين بهاء البيان، ويزيده عذوبة وقبولاً، والإكثار منه في الإنشاء والخطابة إكثاراً فاحشاً مما يزري ويفوت المقاصد والكليات على المتكلم والسامع أو الكاتب والقارئ.

وكان ابن الوردي شاعراً، وسِفره هذا شاهدٌ على رقّة طبعه وجمال أسلوبه.

وقوله: **فاطِّرَاحُ الرِّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقَل**، أي: ترك العطاء في الناس قليل، يريد أن يقول: إن مذهبه كذلك. وهذا المعنى - مع صحته- لا يأتلف مع سهولة نظمه وجمال سبكه، ولعل الكلام هكذا:

---

(١) كتبت عليها شرحاً مُيسراً، يجلي عباراتها ومقاصدها بلفظ موجز، يحتاج إليه المبتدئ، ولا يستغني عنه المنتهي.

..... وَلاَزِمْ مَذْهَبِي فِي اطِّرَاحِ الرِّفْدِ، فَالدُّنْيَا أَقَلّْ

ولهذا عَدَّلتُه في الأصل.

أي: لازِم مذهبي ومسلكي في ترك العطايا، وابتغاء المال من وراء الشعر، فالدنيا أقل من أن يبذل فيها المرء ماء وجهه وشيئاً من دينه، وقد ورد في المدَّاحين ما ورد، فإذا كان المادح ممن ينتسب إلى العلم أسقطه.

والشعر من عناوين الفضل والأدب، خاصة إذا لم يبتذل، وهل يبتذل إلا بالمديح.

وَلَوْلاَ الشِّعْرُ بِالعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ اليَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

وأما هو في ذاته، فما من فاضل ولا عالم ولا إمام إلا قال الشعر، أو استشهد به، أو سمعه، فاستحسنه.

ثم راح الشَّاعر بعد ذلك ينعى أهل زمانه، يخبر أن أهل الفضل والمروءة ماتوا وقَضوا، وهذه النظرة التشاؤميةُ غالبةٌ على أكثر الناس على سبيل المبالغة، وإلا فالفضل باقٍ وإن نقص، وأهله باقون وإن نقصوا.. والمُقرِف: لئيم الأصل الدنيء والمتكئ على أصله الذي يفخر بفضل آبائه وأجداده، ولا يقتفي أثرهم.

إِنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَذَا لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

٣٠ - أَنَا لاَ أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ
قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ القُبَلْ

٣١ - إِنْ جَزَتْنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي
رِقِّهَا أَوْ لاَ فَيَكْفِينِي الخَجَلْ

اللغة:

رِقِّهَا: بكسر الراء: ملكها، وبالفتح: الورق، وبالضم: الإوزّ.

لَعَلّ: كلمة تَرَجٍّ أو توقُّعٍ أو إشفاقٍ.

الشرح:

استطرد الشاعر وجره السياق إلى الحديث عن نفسه، كأنه يصور ما يفعله غيره من الشعراء والمادحين، وهي وصية قدمها في قالب جديد، وللنصح قوالب شتى، وهذا من أبرعها وأبدعها، وهو أن يمثل المتكلم نفسه بمنزلة المنصوح، فيجري الكلام على لسانه كأنه قد قبل النصح وعمل به..

يقول: أنا لا أختار ما يختاره كثير من الناس من التزلف والمدح لمن لا خير فيه بتقبيل يده، والخنوع له، فربما كان قطعُ تلك اليدِ الآثمة التي تتناول المعصية خيراً من تقبيلها، وهي إن جزَتني عن مدحي وشعري، بِعتُ كرامتي وذمتي، وصِرتُ في رق الممدوح ؛ لأن من أمدحه لدنيا أصيبها أول مَن يعلم مطلبي، ويتهمني في صدق نيتي، ويوقن أنه لولا النوال والعطاء لما مدحت بشيء، وإلا فيكفيني الخجل وضياع ماء الوجه وثوب المذلّة، والجمع بين خسارتين، ولا يزال المرء كبيراً حتى يُحَقِّرَ نفسَه بنفسه.

والبيت الذي بعده يحكي حالَ كثيرٍ من الناس في العطاء، وهو حال من يُعطي بعد مماطلةٍ ومواعدةٍ يستنفذ بها كرامةَ الآخذ التي لا يعدل ثمنَها كنوزُ الدنيا وقناطيرُها المقنطرة، وهذه خِصلة ذميمة تزرعُ في الناس اللُّؤمَ، وتُعَلِّم السائلين المهانَةَ، ولن ينقلب السائل شاكراً أبداً، ومن الناس من يفعل ذلك مع الفقراءِ والسائلين في مال الله الذي لا يملكُ منه شيئاً، وهو الزكاة التي فرضها الله على عباده..

فيا أيها المُعطي إما أن تُعطي بلا إذلال ولا إهانة، وإما أن تقول قولاً ميسوراً، فهذا هو أدب الشرع.

وإن الناس لا يغيظهم منك كثرة مالك وعلوّ جاهك، ورفعة منصبك، إلا إذا ترفّعت عنهم، وقصَّرتَ في الإحسان إليهم، وأعرضتَ عنهم إعراضَ المُحتَقِر.. وإنك لُمتَّهم بالاسكتبار عندهم حتى تكشف لهم عن خلاف ما يظنون.

«أما استرقاق الأحرار وامتهان النُّبلاء، واستعباد الرجال، فهذا دليل على خِسّة الطبع، ورذالة النفس، وسقوط الهمة، وإن من أعظم سجايا الكرام رحابة الخاطر، وسخاء الكَف بلا مَنّ ولا أذى»[1].

والاستغناء بالله أوفى عمل، والتوكل عليه أزكى أمل، وكما قيل: سَائلُ اللئيم يرجع ودمعه سائل.

لاَ تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً
وَسَلِ الَّذي أَبْوابُهُ لاَ تُحْجَبُ

---

(١) حينما بلغتُ هذا الموضع طلب مني -وهو بمنزلي صاحبنا فضيلة الدكتور: عائض القرني- مناولته، فقرأ ما قبله، ثم كتب بأسلوبه الشائق الرائق ما بين القوسين.

اللّه يــغــضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ
وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِين يُسْأَلُ يَغضبُ

ثم قال:

٣٢ - أَعْذَبُ الأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ خُــذْ
وَأَمَــرُّ اللَّــفْظِ نُطْــقِي بِلَــعَلْ

هذا البيت مما جــرى علــى الألســنة، وســار مســار الأمثال، وقصد المصنف منــه الإشــارة إلى حُســن درجــات التعامل مع من سأل أو التمس حاجــة تقضــيها لــه، وهــو إنجازه والإيفاء بها عند طلبــها، أو الوعــد بتحقيقهــا بعبــارة صادقة تنبئ عن اقتدار ونجدة.. وأَمَــرّ ألفــاظ الوعــود قــول الإنسان لصاحب الحاجة: لعلــي أفعــل، أو لعلّــي أتــذكر، أو أستطيع ونحو ذلك من العبــارات المحيِّــرة.. وقــد يضــطرّ الإنسان إلى ذلك لأغراض كــثيرة لا تخفــى، منــها: الأخــذ بالحيطة.

٣٣ - مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسرَةٌ
وَعَنِ البَحْرِ اجْتِزَاءٌ بِالوَشَلْ

٣٤ - اِعْتَبِرْ { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم }[1]

تَــلْقَــهُ حَقاً، وَبِالحَقِّ نَــــزَلْ

٣٥ - لَيْسَ مَا يَحْوِي الفَتَى مِنْ عَزْمِه

لاَ، وَلاَ مَا فَاتَ يَوْماً بِالكَسَــلْ

اللغة:

كِسْرَى: ملك الفُرس، يُلقب به كل من ملكهم، وملــوك مصــر: الفراعنة، واليمن: التَّبابعةُ والأقيالُ، والرُّومُ: القَياصرة.

كِسْرَةٌ: بكسر الكاف: قطعة الخبز.

اجْتِزَاءُ: اكتفاء.

الوَشَلْ: المطر الخفيف.

عَزْمِه: مُرادُه المصمَّم عليه.

الشرح:

يُزَهِّد في الدنيا، ويحث على القناعــة، وتــرك الطمــع في هذه الأبيــات الرائقــة الممتعــة، وألفــاظ الجنــاس، وجمــل

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢.

الاقتباس، فالعزّ كله في السعادة وراحة البال، والسعادة كلُّها في التقوى والقناعة، وقد تكون الدنيا في يدك، وفي قلبك مثلُ ما تملك عناءً وهَمّا وغَمّا، فلا المال يصنع السعادة وحده، ولا الجاه، إنما السعادة في الرضى بالقليل، والخوف من الجليل. وقد سأل أحد الخلفاء يوماً وزراءه ومن حوله من الحاشية: من أسعد الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أسعد الناس رجل له زوجة يحبها وتحبه، آمنَين لا نعرفه ولا يعرفنا. ولو خير أغنى الناس في الدنيا بين ما يملك وجرعة ماء، لاختار ما يسدّ رمقه مقابل كنوزه، ومثل ذلك انحباس تلك الفضلة، ولهذا قال ابن الوردي:

مُلْكُ كِسْرَى عَنْه تُغْنِي كِسْرَةٌ .....

وكما قيل:

الجُوعُ يُطْرَدُ بِالرَّغِيفِ اليَابسِ
فَعَلاَمَ تَكْثُرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي؟

ومعنى بيت ابنِ الوردي: أن القليل يكفي عن الكثير، وما قلّ كان أحلى، وفي المطر الخفيف ما يغني

عن البحر المواج والماء الثجاج، وربما كان في كثرته الهلاك والدمار.

ومن تأمل في أمر الرزق علم أنه لا يُكتسب بالدهاء ولا بالحيل، كما قال الزمخشري، وقيل: ابن الرَّاوَنْدي، وقيل: غيرهما:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ العَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

فأَمْر الرزق مفروغ منه، ألم تر إلى قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (١)، أخبر عن الرزق والخلق بصيغة الماضي ؛ لأنه فُرغ منهما، وأخبر عن الإماتة والإحياء بالمضارع ؛ لأنهما مستقبلان.

والله يقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (٢). ومن تأمل ذلك في واقع الناس وجده

---

(١) سورة الروم: ٤٠.

(٢) سورة الزخرف: ٤٢.

حقاً لا مرية فيه، بل لو تأمله في نفسه وأهله لأدرك ذلك بلا عناء، ولعَلِم أن رزقَه أعلم بصاحبه منه بِه.

وليس كلُّ ما يحويه المرء ويجمعه من مال، يَرجع إلى قوة حِيلته، وحِدة ذكائه، ولا كلُّ ما فاتَه يفوته بالكسَل والفُتور، فكم من قعيد يُرزق في بيته ما لا يُرزَقُه ساعٍ كادحٍ طولَ يومه، غير أننا أُمرنا جميعاً بأن نسعى ونعمل، فإن عملك ليس لك وحدك، بل هو عائد عليك وعلى غيرِك، أو على غَيرِك دونك، وبهذا تُرْزَقُ ولو بعد حين، ومن أجل ذلك يصل رزقك إليك، وكل ذلك مع الاعتماد على الخالق عز وجل؛ ولهذا قيل: ترك الأسباب سَفَهٌ، والاعتماد عليها نوع من الشرك، والواجب العمل بالأسباب، والاعتماد على الرزاق الوهاب.

٣٦ - اِطْرَحِ الدُّنْيا فَمِنْ عَادَاتِها

تَخْفِضُ العَالِي وتُعْلِي مَنْ سَفَلْ

٣٧ - عِيْشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِها

عِيْشَةُ الجَاهِدِ، بَلْ هَذَا أَذَلْ[1]

---

(١) في نسخة: أقل.

٣٨ - كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِـرٌ
وَحَكِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالعِلَـلْ

اللغة:

الجَاهِد: من الجَـهد، وهو المشقة، بفتح الجيم، ويضم.

مُثْرٍ: صاحب ثراء.

الشرح:

الزهد في الدنيا وإخراجها من القلب هو الطريق المختصر للحياة الطيبة، وسعادة النفس، ودنيا كل إنسان هي عمره وما يتعلق به، وأما حياة من سواه، فدنيا غيره، والأعمار قصيرة، وإذا كانت دنياك هي عمرك، فهي قصيرة أيضاً، وما هي بالنسبة للآخرة إلا كامرئ أراد أن يسافر إلى مكان يستقر فيه هو وأهله وولده، وفي طريقه عرج على مكان ؛ ليتزود منه سَاعة، ثم يمضي إلى مستقرِّه، فهل من العقل في شيء إذا أمر -قبل رحيله- أن يجهَّز له في ذلك المكان الذي عرض له الاسترواحُ فيه ساعةً من دهره قصرٌ وفناءٌ وحديقةٌ غنّاء، ويحوطها بالخدم والخول، ويترك المكان الذي ينوي الاستقرار فيه آلاف أضعاف

تلك المدة الوجيزة خراباً يباباً..؟ ذلك هو الحمق بعينه، فهل أكثر الناس جاهلون حمقى؟ نعم، هم كذلك. قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾[1]، ومن عادة الدنيا أنها ترفع من لا يستحق الرفعة، وتخفض من يستحقها.

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيا بِتَقْدِيمِ جَاهِلٍ
وَتَأْخِيرِ ذِي عِلمٍ، فَقَالَتْ: خُذِ العُذْرَا
بَنُو الجَهْلَ أَبْنَائِي لِذَاكَ رَفَعْتُهُم
وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِيَ الأُخْرَى

وحياة الزاهد في الدنيا المطّرح لها كحياة من أتعب نفسه في تحصيلها.. الكلُّ سواء، ولن يأخذ كلُّ أحدٍ إلا ما كُتبَ له.

وَالسَّعْيُ فِي الرِّزْقِ وَالأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ
بَغْيٌ أَلاَ إِنَّ بَغْيَ المَرْءِ يَصْرَعُهُ

---

(١) سورة الروم: ٦، ٧.

يريد: السعي فوق العادة.

وعن شقيق الزاهد: اختار الفقراء ثلاثة أشياء: راحةَ النفس، وفراغَ القلب، وخفةَ الحساب. واختار الأغنياء: تعبَ النفس، وشغلَ القلب، وشدةَ الحساب.

وكم من جهول أحمق يأتيه المال مدراراً ومكثاراً، لم يصل إليه بذكاء ولا عقل، وكم من عليم صاحب عقل، لم ينتفع بعقله في شيء من تحصيل الرزق، وربما أدّاه عقله إلى الخسارة والافتقار، ثم الهمّ والسَّقم، وكان ذلك سبَبَ حتفه وتَلفه.

٣٩ - كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنْلْ فِيهَا المُنَى

وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الأَمَلْ

٤٠ - فَاتْرُكِ الحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّئِدْ

إِنَّمَا الحِيلةُ فِي تَرْكِ الحِيَلْ

المُنَى: جمع مُنية، وهي ما يُتمنى، والاتئاد: الترفّق.

يقول: كم شجاع في هذه الحياة لم يتحقق له مطلوبه ولا وصل إلى مبتغاه، ولم ينتفع بشجاعته في بلوغ الأماني.. هذا أبو الطيّب المتَنبِّي الذي فاخر

بشجاعته الدنيا كان يؤمّل أن يظفر بضيعَة أو منصب، واحتال لذلك بشِعره وشجاعته، فلم يحصل على شيء مما تمنى وأمّل، وكان غاية أمره أن قتله شعره وشجاعته وفخاره.

وكم من الجُبناء الخُوَّار من بلغ مراده وأوتي سؤلَه، ونال غاياته وأمنياته، لم يوصله إليها شجاعة ولا إقدام ولا قوة حيلة، وأسباب هذا وذاك كثيرة يجمعها اختلال الموازين العدل والحب والسَّلام، يقول ابن دُرَيد ينعى مثل هذا في زمانه:

أَرَى زَمَناً نَوْكَاهُ أَسْعَدُ أَهْلِهُ
وَلَكِنَّمَا يَشْقَى بِهِ كُلُّ عَاقِل
مَشَتْ رِجْلُهُ أَعْلاَهُ والرَّأْسُ تَحْتَهُ
فَكَبَّ الأَعَالِي بِارْتِفَاعِ الأَسَافِلِ

فإذا كانت الأماني لا تُنال بدقيق الحيل ومهارة الموهبة وقوة الحذق وجليل الخصال، فالحيلة أن تترك الحيلة في إتعاب نفسك في الطمع والأماني الكبيرة، وتلزم الرضا والقناعة والتؤدة والرفق.

وفرق كبير بين الطمع والطُّموح والاستشراف وعلوّ الهمّة.

والمصنِّف يريد الإرشاد إلى ترك الطمع وبيان أن الدنيا لا تعدل بين أبنائها.

ثم قال:

٤١ - أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِد مِمَّا تُفَدْ
فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهَا بِالشَّلَلْ

تُفِدْ: تُعطي

مما تُفَدْ: بضم التاء، وفتح الفاء، والأصل: تفاد، ولكنه عامله معاملة المجزوم، الذي تحذف ألفه للالتقاء الساكنين ؛ لأن الدال هنا ساكنة.

الشرح:

يدعو على البخلاء الذين يأخذونَ ولا يعطونَ، وينتفعونَ ولا ينفعونَ، يقبضون أيديهم..يدعو عليهم بالهلاك وتلف أيديهم وأرجلهم..والبخلُ داءٌ عزيز الدَّواء، تأتي مرتبته بعد الحُمْق، وللبخل من الحُمْق نصيب، فهو من الأمراض المزمنة القديمة، التي لم يكتشف لها الطب الحديث علاجاً.

ومن الناس من يخلط بين البخل وترشيد المال وإنفاقه في موضعه باعتدال..

٤٢ - لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا
إِنَّما أَصْلُ الفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ

٤٣ - قَدْ يَسُودُ المَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ
وَبِحُسْنِ السَّبْك قَدْ يُنْفَى الزَّغَلْ

٤٤ - وَكَذَا الوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا
يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلاَ مِنْ بَصَلْ

٤٥ - مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى
نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرِ اتَّصَلْ

اللغة:

أَصْلِي: آبائي.

وَفَصْلِي: ذريتي.

يَسُودُ: يعلو شأنه ويشرف.

السَّبْك: سبك الذهبَ: أذابه ليصنعه على ما يريد.

الزَّغَل: الغِشّ، وهذه اللفظة من المستدركات على القاموس.

النَّرْجِس: على وزن مَجلس وسِمسِم، زهر له رائحة زكية.

الشرح:

يقول: لا تفتخر بنسب ولا ولد، فهذا فعل العاجزين، إنما أصلك وفصلك ما حصل منك من مشاركتك لبني جنسك، ونفعك لنفسك ومجتمعك، وما أنت فيه من خصال حميدة، وعمل ناجح، وكن كما قال الأول:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ وَالإِقْدَامَا

وفي يوم القيامة: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[1].

ولو كان المرءُ يسود بآبائه لساد الناس كلُّهم ؛ لأنهم كلهم ينتهون إلى من هو عالي الرتبة، رفيع المنزلة في

---

(١) سورة لقمان: ٣٣.

الأصل الأصيل، ولما وجدنا سادةً أباة لم تسد آباؤهم، بل كانوا في منزلة منحطة، ومنهم من لا يُعرف أبوه، وأكثر العلماء في القرن الثاني الهجري من الموالي، كالحسن، وقتادة، وعطاء، ومكحول، وسيبويه، وليس في القرّاء السبعة ورواتهم من هو صريح النسب إلا أبا عمرو بن العلاء، وعبدالله بن عامر الدمشقي.

أَبُوعَمْرِهِمْ واليَحْصُبِيُّ ابْنُ عَامِرٍ
صَرِيْحٌ وَبَاقِيهِمْ أَحَاطَ بِهِ الوَلاَ

وقوله: **وَبِحُسْنِ السَّبْكِ**، هذا على طريقة التشبيه الضِّمني الذي يشتمل على دليل يؤكد الدعوى ؛ ليقيس السامع شيئاً فشيئاً لجامع بينهما، والقياس تشبيه. والدعوى هنا: سيادة الابن بدون أب شريف، والأصل في تخليص الذهب من الشوائب أنه حينما يكون مختلطاً بمعادن أخرى لتقوى صلابته يُفتَنُ ويُختَبَر بإحراقه، فيحترق جميع الزَّغَل والمواد المتعلقة به حتى لا يبقى إلا الذهب الخالص، ليكون عيار أربعة وعشرين، كما هو متعارف عليه اليوم.

وكذلك زَهر الورد، أغصانه وسيقانه مليئة بالشوك، وزهر النرجس الزكي الرائحة، يقال: في شمه

غذاء للرُّوح والعقل ويقطع الجنونَ، يبزغ من بين أوراق البصل، والفرق بينهما في الرائحة هو الفرق بين المتضادات، وهذا يفيد أن الأقيسة لا تطّرد في مثل هذا، ولا يلزم من شرف الأصل شرف الفرع، ولا من دناءة الأصل دناءة الفرع.

ثم إن زكاء النسب إذا اجتمع معه شرف الفرع، وإثبات الذات، زاده فضلاً على فضل، وشرفُ الأصل له في الغالب أثر على الفرع.

وحتى لا يُظَنَّ أن الشاعرَ حينما نهى عن الفخر بالوالد وضيعُ النسب أو مجهولُه، لوّح إلى إزالة الوهم بالبيت الأخير، الذي يفيد انتسابه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما بيناه في ترجمته في المقدمة.

٤٦ - قِيمَةُ الإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ
أَكْثَرَ الإِنْسَانُ مِنْهُ أَوْ أَقَلْ

٤٧ - اُكْتُمِ الأَمْرَيْنِ فَقْراً وَغِنىً
وَاكْسَبِ الفَلْسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلْ

٤٨ - وَادَّرِعْ جِداً وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ
صُحْبَةَ الحَمْقَى وَأَرْبَابَ الخَلَلْ

اللغة:

الفَلْس: بفتح الفاء، جمعه أَفلُس وفُلُوس، ومعناه معروف.

بطل: خسر.

ادَّرِعْ: فعلُ أمر من: ادَّرَعَ، إذا لبس الدِّرْع.

جِدًّا: اجْتهادًا، الاسم بالكسر، والمصدر بالفتح، ويأتي مفتوحاً بمعنى العَظَمة، والحَظّ، ووالد الأب.

الشرح:

فائدة النظم تقييد المعاني بكلام أدعى للحفظ، وأصل الكلام الذي نظم في البيت الأول مروي عن علي بن أبي طالب «قيمة المرء ما يُحسِنه»، ولا يكون الإنسان إنساناً إلا بصفاته وشمائله، فإذا كان صورة لا يميزها شيء في الخارج فهو جثة لا قيمة لها، فكيف إذا زاد فساداً في الأرض وشراسة في الخلق، وكم في الأرض من أُناس لا قيمة لهم ولا نفع، عالة على غيرهم، ينتفعون من العاملين في الأرض ولا ينفعون، الخباز يخبز لهم، والصانع

يصنع لهم، والبناء يبني لهم، والكناس يكنس لهم، وهم لا يشاركون المجتمع بإصلاح ولا عمل ولا علم ولا فكر ولا كلام مفيد، ولا شيء..هؤلاء، لا يحسنون صنعاً، ولا قيمة لمن لا يُحسن، فدع الملل وابدأ العمل، ولا تعجز، ولا تيأس، وفي المثل: إذا لم يكن ما تريد، فأرِدْ ما يكون.

وَلاَتَكُنْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَاصْطَبِرْ لِكَدِّه وَلِلْمَلاَلِ طَلِّقِ

وفي البيت التالي يحث الشاعر على الكتمان في حالَيْ الفقر والغنى، أما الفقرُ فدفعاً لشماتة الأعداء، وصبراً على البلاء، وأما الغِنى، فدرءاً للحاسدين، وتربيةً للنفس، وكسراً لدواعي الزهو والعجب والكبرياء.. والكتمان أعون على قضاء الحوائج، وروي في الحديث المتفق على صحة معناه «**اِسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالكِتْمَانِ**».

وكل من الفقراء والأغنياء بمنزلة على حسب صبرهم وشكرهم، وجاء في فضل الجميع نصوص كثيرة.

واختلف العلماءُ: أيُّهما أفضل الغنيُّ الشاكرُ، أم الفقيرُ الصابر؟ فقيل: الشاكر، وقيل: الصابر، وقيل: أفضلُهما

أتقاهما، وهذا ليس بسديد ؛ لأنه إذا كان الفضل بذلك، كان التفضيل بالتقوى، لا بذات الغنى مع الشكر، والفقر مع الصبر، وهو خروج عن محل الخلاف، بل هذا الجوابُ يَصلُحُ في كلٍّ متفاضلَيْن اختُلف فيهما.

وقوله: **وَاكْسَبِ الفَلْسَ**. حَثٌّ على العمل والجِد لإعزاز النفس، ومحاسبة أهل البطالة التاركين للعمل وهم قادرون، وباعث الجد هو الإرادة والعزم، وفي المثل: حيثما وُجدت الإرادة، وُجد الطريق.

ثم نَفَذَ من ذلك إلى الحثِّ على التدرُّع بالجد والكد والاجتهاد والعمل، وأول عمل يراد هو العمل للآخرة، ثم العمل لبناء الحياة، وإعمار الأرض، والعمل عزّ للنفس، وراحة للضمير، وبناء للجسم، وإعفاف للعيال.

ومما يُعين على العمل للأولى والآخرة: الابتعاد عن مصاحبة الحَمقى، والحُمْق داءٌ ليس له دواء، ولا ينجع فيه محاولة المَهَرة من الأطباء والحكماء.

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

ويُعرف الأحمق من كلامه وتصرفاته، فإنه يضر من حيث يريد النفع، وهو لا يدري، وكم من أرواح وأموال وعلاقات ومكاسب معنوية ضاعت جرَّاء تصرف أحمق.

وذَكروا من علامات الأحمق: سرعةَ الجواب، وكثرةَ الالتفات، والعجلةَ في الحكم، والإفراطَ في الضَّحِك، ومخالطةَ الأشرار، والوقيعةَ في الأخيار.

وهناك علاماتٌ شكلية ذُكرت في كتب الأدب والفِراسة، غيرَ أنها لا تَنضبطُ.

وفي رءوس كثير من العباقرة زوايا حُمق لا تَبرز غوائلها إلا في المضايق والنوائب، وساعات الغضب.

والحمقُ يقودُ إلى كلِّ طبعٍ خَسيس، وهو درجات، وكُلُّ كَافرٍ أَحمقُ، وللعصاة نصيبٌ بقدر ذلك.

وأرباب الخَلل هم أصحابُ الفسادِ والإفسادِ.

وللجليس الصالح أثرٌ على مَن يجالس، والصاحب ساحبٌ.

..... وَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

ولقد أحسَنَ من قال:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَن غَدَا

مُضَافاً لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا

فَرَفْعُ (أَبُومَنْ) ثُمَّ خَفْضُ (مُزَمَّلٍ)

يُبِينُ مَقَالِي مُغْرِياً وَمُحَذِّرَا

٤٩ - بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلٍ رُتْبَةٌ

فَكلا هَذَينِ إِنْ دَامَ قَتَلْ

٥٠ - لاَ تَخُضْ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا

إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ للزَّلَلْ

٥١ - وَتَغافَلْ عنْ أُمُورٍ إِنَّهُ

لَمْ يَفُزْ بِالحَمْدِ إِلاَّ مَنْ غَفَلْ

الشرح:

التبذير: مأخوذ من البذر ؛ لأنه حبوبٌ متفرقةٌ، وكذلك التبذيرُ: تفريقٌ وتبديدٌ، بين منزلة التبذير والبخل منزلةٌ ثالثةٌ هي منزلة القَوام والاعتدال..، ومن صفات عباد الرحمن: التوسُّطُ في

الإنفاق بين الإسراف والإقتار: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[1]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[2]، أي: فتقعد ملوماً يلومك الناس إذا بخلتَ بمالك وقبضت يدك، ومحسوراً، أي: في حسرة وندامة إذا بددت مالك، ولم تبق لنفسك ولمن تعول شيئاً.. وهو من أساليب اللف والنشر في البلاغة، وهذا معنى قوله: **وَكِلاَ هَذَيْنِ إِنْ دَامَ قَتَلْ.**

وَالإِسْرَافُ: جهلٌ بمقادير الحقوق، والبخلُ شعبةٌ من الجُبن، ومجرى يلتقي مَعَ الحسد؛ لأنّ كُلاً من الحاسد والبخيل يريد مَنعَ الخير عن غيره، وهو دَرَجَاتٌ، كما أن الإسرافَ درجاتٌ، والاعتدالُ في الإنفاقِ نِسْبِيٌّ.

---

(١) سورة الفرقان: ٦٧.

(٢) سورة الإسراء: ٢٩.

وقاعدة الاقتصاد العالمي تقولُ لصاحبِ الدَّخل المحدود: يجب أن يكون صَرْفُكَ أقلَّ من دخلِك.

والبخل مذموم عقلاً وشرعاً في جميع الأحوال، وليس كذلك الإسرافُ.

ثم ينتقل الشاعرُ إلى وَصيةٍ أخرى، وهي حفظُ اللسان من الخوض في أعراض من سبق من أهل العلم والفضل، كالصحابة والتابعين وأتباعهم بإحسان، فهذا مما يؤذي به المرء نفسه، والجميع أفضى إلى ما قدّم، وألقى برحله، ولقي ربَّه.

وقوله: **إِنَّهُمْ لَيْسُوا بَأَهْلٍ لِلزَّلَلْ**. يحتمل معنيين:

الأول: ليسوا أَهلاً لأن يقعوا في الزَّلل.

الثاني: ليسوا أهلاً أن يزلَّ المرءُ فِيهم بالكلامِ عليهم.

أما الأَوَّلُ - والظَّاهر أنه مرادُ المصنِّف - فخطأٌ لا تَحْتمِله المبالغةُ، فالجميع معرَّض للزَّلَل، وكلُّ ابنِ آدم خطَّاءٌ، وأما على المعنى الثاني فالكلامُ فيه نوعٌ من البُهتان والافتراء أو الغيبة، وكثيرٌ من العامَّة يخلط في الفهم، فإذا أنكر عليه في قوله عن أحدٍ من الناسِ

وذمِّه، سارع بالإجابة: بأن ما قاله حقٌّ، وهل الغيبة إلا قول الحق في أخيك، والغيبة مُحَرَّمة، فإذا كانت في فاضل مَيت، زادت حُرمتها، واستُثني من ذلك حالات، جمعها قول بعضهم:

لَيْسَ الكَلَامُ بِغِيبَةٍ فِي سِتَّةٍ مُتَظَلِّمٍ وَمُعَرِّفٍ وَمُحَذِّرِ
وَلِمُظْهِرٍ فِسْقاً وَمُسْتَفْتٍ وَمَنْ طَلَبَ الإِعَانَةَ فِي إِزَلَةِ مُنْكَرِ

ثم خَلَص الناظمُ بعد ذلك إلى الحثِّ على صفةٍ محمودة، وهي التَّغَافُل في الموضع الذي يحسن فيه ذلك.

وذكر ابن حزم في كتاب «مداواة النفوس» أن من عجائب الأخلاق أن الغفلةَ مذمومةٌ، واستعمالَها محمودٌ، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِي

ولمثل هذا التخلق مواضع، من أحسنها: التغاضي عمن يعرّض بك، فتُعرِضُ عنهُ إعراضَ من لم يَفْهم مقصودَه، ومثله التغافل عن سَقَطَات الأهلِ والولَدِ والقريبِ، مع التَّهويل من فعل ذلك في وقت آخر، فإنَّك إن أبديتَ لهم صفحةَ اطلاعك، فإما أن تُعاقب عليه عقاباً

أَشد من الذَّنب، وهو ظُلم، وإما أن لا يكون موقفُك كذلك، فيُفضي ذلك إلى ضعف الوازع، وفي كلا الحالين يولّد ذلك تجاوز السَّقطة إلى أكبر منها ؛ لأنهم عرفوا غاية ما عندك.

٥٢ – لَيْسَ يَخْلُو المَرْءُ مِن ضدٍّ وَإِنْ
حَاوَلَ العُزْلَةَ فِي رَأْسِ الجَبَلْ

٥٣ – مِلْ عَنِ النَّمَّامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا
بَلَّغَ المَكْرُوهَ إِلاَّ مَنْ نَقَلْ

٥٤ – دَارِ جَارَ السُّوءِ بِالصَّبْرِ وَإِنْ
لَمْ تَجِدْ صَبْراً فَمَا أَحْلَى النُّقَلْ

اللغة:

العُزلة: العيشُ بمعزل عن الناس.

مِلْ: فعل أمرٍ من: مالَ يميل، والمراد: اجتنبه.

النَّمَّام: مِن: نَمَّ، وهو من يَسعى بالكلام للوقيعة بين الناس.

دارِ: فعل أمر من: دَارى يُداري، والمداراةُ: الملاينةُ.

النُّقَل: جمع نُقلة، والمرادُ: الانتقال.

الشرح:

ليس أحد يخلو من حاسدٍ أو حاقد أو عدو كاشح إلا أن يكون سليبَ النعمة ليست له أيُّ ميزة على أحد من خلق اللّه، وهذا هو البائسُ الفقير، المُبتلَى في دنياه، ومع ذلك لن يخلو من شامتٍ ومعيِّرٍ، ذلك هو شأن الناس، ومَن عَرفهم أَحسَن التعَايش المناسب بما تُرشِد إليه الدِّيانةُ ويريحُ نفسه، وأما طلبُ رضا الناس جُملة، فمحالٌ، وتكليف فوق الطاقة، فإننا لا نرضى عن أنفسنا في كثير من الأحيان. ولا يدرك رضا الناس حتى من حاول العُزلة في رأس الجَبل.. سوف يجدُ من يقول عنه: مجنونٌ، أو مُعَقَّد، أو انطوائي، وكذلكَ يفعلونَ. ولا بد في الحياة من غَصَص، وقد تقدم الكلام عن العزلة باستفاضة في أول الكتاب.

لاَ تَرْجُوَنْ صَفْواً بِغَيْرِ كَدَرٍ فَذَا -لَعَمْرُ اللّهِ- لَمْ يَتَّفِقِ

ولا يزال ابن الوردي يرسل وصاياه ونصحه أمراً وزجراً، فكان من غرره ودُرره قوله: **مِلْ عنِ النَّمَّام** ... إلخ.

أي: اجتنب النمام، ومِل عنه كلَّ الميل، ولا تخالطه، فهو شر الناس وأخسهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾[1]، وثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة نمَّام»، وفي لفظ: قتَّات، وهما بمعنى، والحديث يشير إلى أن النميمة من الكبائر، فإن كان من الموحدين فالحديث محمول على واحد أمرين: إما أن يكون مبالغة في الزَّجر، وهو أسلوبٌ تربوي لا يقلِّلُ من شأنِ المَعصية.

وإما أن يكون المراد: لا يدخلها ابتداءً حتى يُعذَّب، أو لا يدخلها مع من يدخلها أوّلاً. وقيل: المراد: من يستحلُّها، وهو ضَعيفٌ.

والتحذيرُ من النمَّام بتركه في جميعِ الأحوالِ، سواءٌ نَقَل عنك أم عن غيرك لك، ومن نَمَّ لك نَمَّ عنك، فلا تثِق بمن هذه صفته، فإن طَبعَه لا يتجزأ، ولا يستطيعُ صاحبه أن يوجِّهه حيثُ يشاء، والوفاءُ منزوعٌ من النَّمَّام، وهو

---

(١) سورة القلم: ١٠، ١١.

قصير الصُّحبة، سيئُ المَلَكة، حقيرُ النَّفْس، كثيرُ الحَسَد، ضعيفُ العَقل، فاسد النَّقل.

ومن الحكمة مداراة الناس وملاينتهم، وفرق بينها وبين المداهنة، فالمداراة: بذل الدُّنيا من أجلِ الدُّنيا، أو الدِّين، أو كليهما، والمداهنة: بذل الدِّين من أجلِ الدُّنيا.

والمداراة محمودةٌ لم يزلِ العُقَلاَءُ يستعملونَها، فإن تغرب الإنسان كانت في حقّه أولى، كما قيل: أَرْضِهم في أرضِهم، ودارِهم في دارِهم.. والصبرُ مما يستعانُ به على المداراة، ومن لم يستطع الصَّبر والمداراة، ففي انتقاله فُسحةٌ وإعتاقٌ لنفسه، وراحةٌ لقلبه، والتُّقَل سهلةٌ على من لم يملك منزلاً يسكنُ فيه.. ولكلٍّ من الاستئجارِ والمِلْكِ محاسنُ ومساوئُ ذَكَرتُها في المقامات.

٥٥ - جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ

لاَ تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

٥٦ – لاَ تَلِ الحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا

رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ

٥٧ – إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ

وَلِيَ الأَحْكَامَ، هَذَا إِنْ عَدَلْ

٥٨ – فَهُوَ كَالمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ

وَكِلاَ كَفَّيْهِ فِي الحَشْرِ تُغَلْ

اللغة:

عَذَلْ: لامَ، ومضارعه بكسر الذال وضمِّها.

تُغَل: مادة (غَ لَ لَ): دالة على ضم وخفاء، والغَلّ وضع القيد في اليد، وفي القرآن: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

الشرح:

مجانبة إغضاب السلطان، والحذر من بطشه، وملاينته في الخطاب، مما يُدركه العقلاء، لا سيما في الأمر

(١) سورة المائدة: ٦٤.

بالمعروف، والتنبيه على منكر، فإن الغرض النصح وقَبوله، وقد قال الله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ [أي: لفرعون] قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[1]، وليس في هذه الأمة من هو أفضل من موسى وهارون، ولا يُعرف متجبِّر في الأرض أشد من فرعون، فإذا كان الناصح والمنصوح دون أولئك، -كلٌّ في مقابله-: فغيرهم أولى بمثل ذلك، ومن يعاند السلطان الذي إذا قال فعل فهو أحمق. والتاريخُ يَحكي لنا ما يملأ الصفحات من ذلك.

وأما من كان همُّه إرضاء الخالق عز وجل، واستعمل ما يوجبه دينه من النصح والإحسان والحكمة والرِّفق، فلا عليه أن لا يَرضى من لا يَرضى، وللشيطان مداخل واسعة في هذا الباب، لا يفطن إليها المرء في تلك الأحوال.

والمتأمل في أحوال الأئمة من العلماء على مرّ التاريخ يلمس السُّكون عند الفتن، والتميز عن غوغاء العامة، بدرء المفاسدِ الكُبْرى.

---

(١) سورة طه: ٤٤.

والبيت الذي بعده في ولاية الحكم والقَضَاء، يوصي فيه الناظمُ بتركِ تولّي الحكمِ، ولو سألكَ الناس، وألحُّوا عليكَ، وأبدوا الرَّغبة والحرص فيك، ومخالفة من لامَك منهم على ترك ذلكَ، فإنّ ولاية الأحكام مسؤولية عظيمةٌ، وأمانةٌ لا يتحملها ضعفاء الناس ومَهَازيلهم.

وهذه الوصية يتعين تطبيقها على مَن وجد مِن نفسه ضعفاً، وأكثر الناس لا يصلح للقضاء والحكم، وقد يتعين الاستجابة على بعض الناس، والعِبرة في ذلك بحاجة الناس واستعداد المكلَّف.

ومما يحسن إيراده في هذا المقام قصيدة قالها الصنعاني يخاطب بها عالماً من علماء تلك الديار اليمنية، ولِيَ القضاء على كبر، وكان القضاء آنذاك فتنة، والأبيات كثيرة أجتزئ منها قوله:

ذَبَحْتَ نَفْسَك لَكِنْ لاَ بِسِكِّين
كَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ طَهَ وَيَاسِين

إلى أن قال:

وَحَيْثُ قَدْ صِرْتَ مَذْبُوحاً فَخُذْ جُمَلاً
فِي النُّصْحِ مَا بَيْنَ تَنْبِيهٍ وَتَبْيِينِ

ثم يقول مطمئناً له:

مَا مَاتَ وَاللَّهِ جُوعاً عَالِمٌ أَبَداً

سَلِ التَّوَارِيخَ عَنْهُ فِي الدَّوَاوِينِ

وابنُ الورديِّ – هنا – يصورُ واقعاً في زمانه ومجتمعه، كان على حال سيئة، وفي قوله: **إنَّ نِصْفَ النَّاسِ**... مقالةُ صدق ؛ لأن من حكم بين الناس بالعدل، اتخذَه المحكومُ عليهم عدوًّا، و لم يَسْلم من كلامِهم وأذاهم، وذلك أنَّ كل قضية حكمَ فيها حاكم، فلها طرفان: طرف محكوم عليه، وطرف محكوم له، فأما النوع الأول فهو ساخط أبداً، أصاب القاضي في حكمه أو أخطأ، هذا إن عَدل، فأما إذا لم يَعْدِل، فأكثر الناس أعداؤه.

وقوله: **فَهُوَ كَالمَحْبُوس**، أي: من حَكم في الناس، يُصبح كالإنسان المحبوس الممنوع مما يُؤذَن فيه لكثير من الناس، ويُحرَم من أشياء كثيرة، منها ما يوجبه العُرفُ، ومنها ما يوجِبه المنصبُ، ومنها ما توجِبه المُروءة، وهذه قيود تضايق الحُرّيَّة، وإن كان في ظاهرها عِزٌّ واختصاص، وقد يكون من غوائل المنصب: تركُ المشي في الأسواق، وإجابةُ الدَّعوات.

والشطر الثاني من البيت: إخبار عن حاله يومَ القيامة إذا لم يعدل، والأحاديث في فضلِ العَدل في الحكم، وتقبيح وذَمِّ الظلم كثيرة.

٥٩ - إنَّ لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ فِي
لَفْظَةِ القَاضِي لَوَعْظاً وَمَثَلْ

كلمة (القاضي) اسم منقوص، والمنقوص: اسمٌ معربٌ آخرهُ ياءٌ لازمةٌ مكسورة ما قبلها، ويُعرب في حالة الرفع والجرِّ بحركة مقدَّرَة على آخره مَنَع من ظهورها الثِّقل، وهذا هو النَّقْص والاستثقالُ الذي عناهُ الناظمُ، وهو نوعٌ من الأسلوب التَّشْويهيّ، والمُرادُ من ذلك التَّحذير.

والوقفُ على «مَثَلْ» بالسكون على لغة ربيعة، أشرتُ إليه في «ما هَبَّ ودَبَّ»:

وَقْفُ رَبِيْعَةَ بِحَذْفِ الأَلِفِ
وَالثُّومُ مُذْهِبٌ لِحَبِّ الكَلَفِ

٦٠ - لاَ تُسَاوِي لَذَّةُ الحُكْمِ بِمَا
ذَاقَهُ المَرْءُ إِذَا المَرْءُ انْعَزَلْ

أي: لا تساوي لذة الحكم مرارة العزل، حينما يَصْدُر القرار بعزله عن عمله.. هكذا قال المصنِّف، والعاقل لا يكترثُ بعَزْلٍ ولا تركٍ ؛ لأنه إما أن يكون محسناً في عمله، فينتهي إلى خير خَلاصٍ، وإما أن يكون مُسيئاً فهذا على أي شيء يبقى؟ ولِمَ يتمادى؟ وقد سوّد ديوانه.

وكلمة: **انعَزلَ**، فعل مطاوع، يقال: عزلتُه فانْعَزَلَ، وكَسَرتُه فانْكَسَر.

٦١ – فَالوِلايَاتُ – وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ
ذَاقَهَا– فَالسَّمُّ ذَاكَ فِي العَسَلْ

٦٢ – نَصَبُ المَنْصِبِ أَوْهَى جَسَدِي
وَعَنَائِي عَنْ مُدَارَاةِ السَّفَلْ

اللغة:

السَّمُّ: بفتح السين، وضَمِّها، وكَسْرِها، والأَفْصح: الفَتحُ، والأشهرُ الضَّمُ، وهو المادة القَاتلةَ، كسَمِّ الأفعى والعقربِ وغيرهما مما فيه شَبَه من تلك الخاصّية.

نَصَب: تَعَبٌ وعَنَاءٌ.

أَوْهَى: أَضْعَفَ.

السَّفَل: أراذل الناس، وسفُل في عِلمه: نَزَل.

الشرح:

يقول للولاية والمنصب لَذَّةٌ، طعمُها حُلوٌ، وريحُها طَيِّبٌ، ولكنها بمنزلة العسل الذي وضع فيه السّم الفاتِكُ، يطعمُه الطَّاعِمُ حلواً شديدَ الحلاوة، ثم لا يلبث أن يقطِّع أمعاءه، وقد تكون الولايةُ كذلك، ظاهرُها فيه الرَّحمة، وباطنُها من قبله العذاب. وفي الحديث «نِعْمَت المُرضِعة، وبِئست الفَاطِمة»، وكم من أُناس آل بهم الحالُ إلى الهلَكة، فكانوا حديثَ الناس، أمثال أبي مسلم الخُراساني، والوزير ابنَ بقيَّةَ، والأمينِ، والمتوكِّل، والمستعين، وابن المعتزّ...، وغيرهم. وتلكَ حالُ الدُّنيا.

دَارٌ مَتَى ما أَضحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَداً تَبًّا لَهَا مِنْ دَارِ

والناظم يقول عن خبرة، ويُخبرُ عن تَجْرِبة، فهو يقول: المنصب نصَب، والحُكم حَكَمةٌ، والقَضَاء قَضاءٌ، وأصدقُ النُّصح ما كان عن معرفة وخِبرة، ففيها من

إتعابِ الجسد والوَنَى ما فيها، وفيها من المُعَاناة في مُدَارَاة سَقَطة الناس وسَفَلتهم، والإغضاء عَنهم، والصَّبر عَلى فُضُولهم، مَا صَرَّح به الناظم، وحذَّر منه على طريقة الشَّكْوى مما ذاقه من مَرَارَتها.

٦٣ - قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ
فَلِيلُ العَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ

٦٤ - إنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ المَوْتُ عَلَى
غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالوَجَلْ

اللغة:

غِرَّة: بكسر الغين: غَفْلة.

جَدِيرٌ: حقيق.

بِالوَجَلْ: بالخوف.

الشرح:

لما كان بعضُ ما تقدَّم التحذيرُ منه سببُه حُبُّ الدُّنيا والتعلقُ بها، أراد أن يعالجَ ذلكَ السببَ ؛ ليجتثَّهُ من أصله.

ومن أطالَ أملَه في الدُّنيا، وركن إليها، غَرَّته، فوقع في شِراكها، كما وقع من هو أشد منه قوة وأكثرُ جمعاً، فما أغنى عنه مالُه ولا جَمعُه.

وقصر الأمَل سببٌ لراحة النَّفس، وموجِّهٌ للقلب إلى الآخرة، والناسُ في الأمل درجات:

منهم مَنْ يُؤَمِّل الخُلود، ومنهم مَن يؤمِّل ما لا يَجري عليه الواقع من الأعمار الطويلة التي لم يعمَّرها أحدٌ في زمانه، كما أخبر الله عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، هذا في أعمارهم، وفيما عدا ذلك أصنافٌ شتَّى أيضاً.

وتأميل بني الإنسان فيما لا يؤمَّلُ مِن ضَعْفهم.

ولا يؤاخَذُ الإنسان في أَمله، إنما يُؤاخذ في عَمله، وفي الصحيح: «يَشيبُ ابنُ آدَمَ، وَيَشِبُّ مَعَه خَصْلَتَانِ: الحِرْصُ، وَطُولُ الأَمَلِ».

---

(١) سورة البقرة: ٩٦.

والعاقِل مَن عَرَف طريقَه، و لم يتعلق بخُيوط الأملِ الطويلةِ المتشابكة.

وهادم الآمال واللّذات، ومنغِّصُ العيش ومفرِّقُ الجماعات هو المَوتُ، الذي يَفرُّ منه الناس، وهو ينتظرهم -لا أقول يلحقهم- بل يلاقيهم فإنه أقرب ما يكون إليهم، وهم أبعد شيء عنه، يرون ضحاياه حولهم وأمامهم وعند أقدامهم، كأن الموتَ مكتوب على غيرهم، وهم ناجون.. نُصَلِّي ولا نَعتبر، ونُشيِّع ولا نَتَّعِظُ، ونَدفِن ثم نَنسى، ولقد ترى في المقابر -والناسُ على شفير القبر- أنواعاً من عَجائب الغَفْلة. والموت لُغْزٌ حيَّر الفلاسفة والدَّهريين، وأما المؤمنون بالآخرة، فعرفوا أنه كيفيةٌ لإسدال السِّتار عن آخر ساعة من زمن البقاء في الدنيا ؛ ليكون بعد ذلك حياة أخرى أبدية سرمدية.

فَلَوْ أَنَّا إِذْ مِتْنا تُرِكْنَا لَكَانَ المَوْتُ رَاحَةَ كَلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيِّ

فالعاقل من جَدَّد توبته كلَّ وقْت، ولَم يَأمَن هَجْمةَ الموت. قال ابن حَجَر العَسْقَلاَني وقد أتمّ ثلاثاً وأربعين سنة:

أَخِي لاَ تُسَوِّفْ بِالمَتَابِ فَقَدْ أَتَى
نَذِيرٌ مَشِيبٍ لاَ يُفَارِقُهُ الهَمُّ
وَإِنَّ فَتىً مِنْ عُمْرِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ
مَضَتْ مَعَ ثَلاَثٍ عَدُّهَا عُمُرٌ جَمُّ

٦٥ - غِبْ وزُرْ غِبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَنْ
أَكْثَرَ التَّرْدَادَ أَضْنَاهُ المَلَلْ

٦٦ - خُذْ بِحَدِّ السَّيفِ واتْرُكْ غِمْدَه
واعتَبِرْ فَضْلَ الفتَى دَونَ الحُلَلْ

اللغة:

الغِبُّ: عاقبة الشيء، وفي الزيارة: أن تكون كل أسبوع، كما في القاموس (غبب)، والمشهور: أن الغِبّ في الزيارة: عدم الإكثار منها.

التَّرْدَادُ: المراد: الزيارة.

أضْناه: أضعفه.

حَدِّ السَّيْف: القاطع منه.

غِمْدَهُ: جرابه.

الحُلَلْ: جمع حُلّة.

الشرح:

هكذا الناظم ينتقل في حدائق الوعظ وبساتين النُّصح.. تارةً يزجر عن محظور، وحيناً يُوصي بمَأمور، وآونةً يلفتُ إلى خلق، ووقتاً يُنبِّه على مَعيب، وساعةً يُرشِد إلى مَحْبوب، وطوراً يرغب في أَدَب، بلا رابطٍ خاص، ولا مناسبةٍ واضحَة، سوى معنى واحد هو الإرشادُ إلى مداواة النُّفوس، وتهذيبِ السُّلوك، والتنبيه على جَوامعِ الأدبِ، ومثلُ هذا يكونُ فيه اللُّؤلُؤ المنثورُ خيراً من الدُّرّ المنظوم، فمَثَلُهُ كمَثَلِ من يَزرع الحَبَّ، ويَخرصُ النَّخل، يَزرعُه متناثراً، ويخرصه مَجْموعاً.

وهنا يُرشدُ إلى الإقلالِ من زيارة الأقارب والأَصْحاب، فإنَّهَا أَدومُ للأُلفة، وأبعدُ عن الإملال، وهو معنى الأثرِ المَشْهُور: زُرْ غِبًّا، تَزْدَدْ حُبا، أي: زُرْ قليلا، حتى لو كانَ المزورُ من أقاربِك، والقُرب نِسبيٌّ، والملل نسبيٌّ، ولكلٍّ حالة لَبوسُها.

يقول الشاعر في معنى الإغبابِ من الزِّيارة:

عَلَيْكَ بِإغْبَابِ الزِّيَارَةِ إنَّها
إذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إلَى الهَجْرِ مَسْلَكَا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الغَيْثَ يُسْأَم دَائماً
وَيُطْلَبُ بِالأَيْدِي إذَا هُوَ أَمْسَكَا

ومَن أكثرَ من التَّرداد على من يزور، سوف يؤثِّر فيه ما يراه بعد ذلك من المَلل الذي يحصلُ للمزور، بسبب إكثاره من الزيارة، وهذا ممَّا يغتم له الإنسان، فيُضنِيه كما قال ابن الوردي.

والبيتُ الذي بعده إرشادٌ إلى أَخذ الأمورِ بقوةٍ وعزم، قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾[1]، وقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾[2].

ومعنى البيت: اضْربْ بحَدِّ السَّيفِ القاطِع، واترُك غِمدَه، فإنه لا يُقطَع به.

---

(١) مريم: ١٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٧١.

ولهذا أمثلةٌ كثيرةٌ في الحَيَاة، تُضْرَبُ للعامِلِ والتَّاجرِ والطَّالبِ والكاتبِ والسَّائرِ، وغيرِهم.

ففي الوسائل يطلبُ منك التماسُ الوسيلة الصَّحيحة، وفي الغايات يطلب منك اختيار الهدف، وإصابةُ المَحزّ، فلا تضرِبْ بما لا يقطع، ولا تضرب أيضاً في حديد باردٍ، ولا في غير الموضع المطلوبِ، بل لا بد من إصابة المَحز، وموافقة المَفصِل.

وقوله: **واعتَبِرْ فَضْلَ الفتَى دَون الحُلَلْ**، ميزانٌ عَدلْ، عليك أن تَزِن به الناس، فالفضائلُ لا تعتبر بالمَظهر، وجميل الحُلل، وكمال الزِّي، فكم من الناس من هو باهرُ الجَمال، بهيّ الطَّلعة، يلبسُ الثيابَ الفاخرة، والزينةَ النفيسةَ، ولكنهُ سَيئٌ الملكة، لئيم الطِّباع، ممحوقُ الفَضْل، فلا تغتر بالمَظْهر وحده، فهو من القياس الفاسد، وكم من إنسان رثٌّ الهيئة، خَلِق الثياب، يزدَريه الناسُ، وهو كَريم الطَّبع، عزيزُ النفسِ، مَحْمود الشمائل.

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفي أَثْوَابِه أَسَدٌ هَصُورُ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلفُ ظَنّكَ الرَّجلُ الطَّرِيرُ

٦٧ – لاَ يَضُرُّ الفَضْلَ إِقْلاَلٌ كَمَا
لاَ يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلْ

٦٨ – حُبُّكَ الأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ
فَاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الأَهْلِ بَـدَلْ

٦٩ – فَبِمُكْثِ المَاءِ يَبْقَى آسِنـاً
وَسُرَى البَدْرِ بِهِ البَدْرُ اكْتَمَلْ

اللغة:

الطَّفَل: آخر النهار.

آسِناً: متغيراً.

وسُرَى: السير ليلاً.

الشرح:

يعلِّل ما ذكره قبلُ من اعتبار المضْمون والمخبَر دونَ المظهر، فَالفقرُ لا يُزْري بأهل الفضل والخَير، فقد كانَ كثيرٌ من الأنبياءِ والنبلاء فُقَراء، وبَقِيَ فضلهم وآثارهم، ولم ينقصهم إِقلالهُم، بل زادَ من ذِكرهم وشَرفِهم.

والطَّفَل: هو آخرِ سَاعة من ساعاتِ النَّهار.

وحُلُول الطَّفَل لا يَضُر الشَّمس، حين يُدني الشَّمْسَ من الغُروب، فالشمسُ هي الشمسُ المشعَّة التي تملأ الكون ضياءً، فَلإن كان الطَّفَل يدينها من الغُروب، فإن البكورَ يرفع أَشرِعَتَه ؛ لتضيء من نافذة أخرى، في مكان آخر، وهِي أيضاً على نفسِ المكان، تَغرُب لتُشرق مرةً أخرى.

إذن: فَالشَّمْسُ هي الشَّمسُ، وأَهل الفضل هم أهلُ الفضل، وإنَّما الاعتبارُ بالجوهرِ والغَايَة.

وقوله: **حُبُّكَ الأَوطَانِ**...إلخ، حَثٌّ على مفارقة الأوطان، والضَّربِ في الأرض، وحيثُما ذُكر الضَّرب في الأرض في القرآن، فالمراد به: السَّفَر.. وما ذكره سبقَ إلى مَعناهُ الإمامُ الشافعيُّ، ومن ذلك قوله:

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ إِنْ كُنْتَ طَالِباً
رَبَاحاً فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيْشَةٍ
وَعِلْمٌ، وَآدابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

وقال:

سَافِرْ تَجِدْ عَوْضاً عَمَّنْ تُفَارِقُــهُ

وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ

٧٠ – أَيُّهَا العَائِبُ قَوْلِي عَابِثــاً

إِنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُــؤْذٍ بِالجُــعَلْ

٧١ – عَدِّ عَنْ أَسْهُمِ لَــفْظِي وَاسْتَتِرْ

لاَ يُصِيبَنَّكَ سَــهْمٌ مِنْ ثُــعَلْ

٧٢ – لاَ يغُرَّنَــكَ لِيــنٌ مِنْ فَتَى

إِنَّ لِلْحَيَــاتِ لِيــناً يُعْتَــزَلْ

الشرح:

يخاطبُ الشاعرُ من يَعيبُ نظامَه وكلامَــه علــى جهــة العبَث والنَّقد لذاتِ النقــد، لا لفائــدةٍ يَحسُــن الســكوت عليها، ولا يزالُ الناس يعانون من مثلِ هذا الصِّــنف الفــارغ العقل إلا من السُّخْف والحُمْق.

وأسبابُه كثيرةٌ، منــها: فَهْــم سِــقيمٌ، ورأيٌ ضَــعيف، يؤدِّي إلى ذلك. قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وقال الآخر:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مَنْ سَقَمِ

وهل يعيبُ الشَّمسَ أن ضَعُف البصرُ عن رُؤيتها.

ومنها: حُب الشُّهرةِ والظُّهور..وَموقفَ العاقل بصدد من عَلم منه ذلك أن ينساه ويتجاهله ويعاملَه بنقيض مقصودِه، ويبقى في مكانه العالي.

ومنها: الرغبةُ في المكابرةِ والجَدَل.

ومنها: الحَسَد، فيَغُضُّ من شأن الحَق وصَاحبه، وصَاحب هذه الآفةِ لا بدَّ أن تظهرَ علاماتُ الحَسَد في مقاله.

ويصدُق على النوعِ الأولِ والأخير قولُه: **إنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالجُعَلْ.**

وذلك أن الجُعَل (وهو دُوَيبة صغيرةٌ سوداءُ)، لا يعيشُ إلا في الزَّبْل وبين العَذِرة، فإذا شَمَّ رائحةً طيبةً، تأذَّى بتلكَ الرائحة، شأنُه شأنُ من تربَّى على الجَهل وأمراضِ القلب، فأصبح يؤذيه ريحُ العلمِ ونفحاتُ الإيمان.

ثم أخذ الشاعرُ يحذِّر من التعرّض له، وغمزِ كلماته وقصيده، وينصح بالابتعاد عنها والاستتار ؛ لأنها سهامٌ صائبة نَفَّاذة لا تخطئُ رَميّتَها، كَسِهامِ الحَيِّ العربي المعروفِ ببني ثُعَل، شُهِروا بالرَّمي وجودَته، وهم الذين عناهم القائل:

إِنِّي أُرِيدُ طُروقَ الحَيِّ مِن إضَمٍ
وَقَدْ حَمَاهُ رُماةٌ مِن بَنِي ثُعَلِ

وقد يغتر الإنسان بلطافة خصمه ولينه، فيأمن من غوائله، ويستضعفه، ظناً منه أنّ باطنَه كظاهرِه، وهو في الحقيقة شديدُ البأس، قويُّ العزم، صادقُ العداء لمن عاداه، مَثَلُه مَثَلُ الحَيَّة، لَيِّنَةُ المَلْمَس، سَهْلَة الحَرَكَة، وفي جَوفِها السَّمُّ الزُّعَافُ (بالفاء والقاف)، والحَتْفُ المُؤَكَّد، وكأن الشَّاعر يعني نفسَه يُحذِّر من استضعافه.

٧٣ - أَنَا مِثْلُ المَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ
وَمَتَى سُخِّنَ آذَى وَقَتَلْ

٧٤ – أَنَا كَالخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ
وَهْوَ لَيْنٌ، كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلْ

٧٥ – غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ
فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ المَوَلى الأَجَلّْ

٧٦ – وَاجِبٌ عِنْدَ الوَرَى إِكْرَامُهُ
وَقَلِيلُ المَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلّْ

اللغة:

الخَيْزُور: شَجرٌ له عروقٌ طويلةٌ، وكلُّ عودٍ رَطب، وهو الخَيزُران، ووجدتُها في المطبوعاتِ بلفظ الخيزُران، ولا يستقيم به البيتُ.

لَيْن: بتخفيف الياء لغة فيه، مثل ضيِّق وضَيْق، وهيِّن وهَيْن.

انْفَتَل: من الفتل، وهو الإبرام.

المَوْلَى: السَّيِّد، ويُطلق على العبد، والقريب وابن العم، والصَّديق.

الوَرَى: الخلق.

الشرح:

من الناس من هو كالعُود اللَّين، من أراد كَسْرَه صَعُبَ عليه ذلك ؛ لأنَّ القوةَ تكمُن في الضَّعف، ومَن أَرَاد عطفَه طاوَعَه العُود على ذلك، وانفتَل له، وقد يكون مع القوَّة ضعفٌ أيضاً.

ومن صفات المؤمنين أنهم أذلةٌ على المؤمنين، أعزةٌ على الكافرين.

وفي الناسِ مَن هو حادُّ الطبع، يتَّقِدُ ناراً عند المغاضَبَة، حتى إذا لوين وتُلطِّف له، و لم يعانَد عاد حَملاً وديعاً، وماء بارداً.

وأكثر الأذكياء تعتريهم حِدَّة، ومن غلب عقلُه على طبعه استطاعَ موازنةَ ذلك، والتحكُّمَ فيه. وفي ترجمة ابنِ تيميَةَ أنه كانتْ تعتريه حِدَّةٌ يقهرُها بالحِلم، وكان يأتيه السَّائل، فيفيدُه إن أراد الإفادة، فإذا أراد المماحكة واللّجاج عرَّفه بنفسِه.

ومن النّاس من يجمع إلى الحِدة ذكاءً وحُمقاً، فيتجاوز في قوله وفعله، فلا يصادفُ الإصابةَ.

وابنُ الورديِّ قال إنه من ذلك النَّوع الأول الذي من شَأنه أن يُجَلَّ ويُكرَم، غير أنه وُجد في زَمَنٍ لا يُقدِّر فيه الناسُ إلا المالَ، فهو الجاه والمنصب، والعلمُ، والحكمةُ، والعقلُ، والسَّدادُ، والشَّجاعةُ، والتواضعُ، والجُود، والقوةُ، وكل صفة حسنى. وأما مَن لا مالَ له، فإنه يَجمع كلَّ نعتٍ قَبيح، وكلّ خَصْلة ذميمةٍ.

مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ
شَفَتَاهُ تَحسينَ الكلاَمِ وَقَالا

وَتَقَدَّمَ الفُصَحَاءُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ
وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الوَرَى مُحْتَالا

لَوْلاَ دَرَاهِمُهُ الَّتِي فِي كِيسِهِ
لَرَأَيْتَهُ شَرَّ البَرِيَّةِ حَالا

إِنَّ الغَنِيَّ وَإِنْ تَكَلَّمَ مُخْطِئاً
قَالُوا: أَصَبْتَ، وَصَدَّقُوا مَا قَالا

وَإِذَا الفَقِيرُ أَصَابَ، قَالُوا كُلُّهُمْ:
أَخْطَأْتَ يَا هَذَا، وَقُلْتَ ضَلاَلا

إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي المَجَالِسِ كُلِّهَـــا
تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالا

فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَـــــةً
وَهِيَ السِّلاَحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَـــالا

ولم يُصبِ الشَّـــاعر حينمـــا اتَّهـــم زمانَـــه وحـــده بذلك، بل هذا حاصـــل في زمانـــه وزمـــانِ مَـــن قَبلـــه، وبعده، وهل فَتَن النـــاسَ إلا الـــدينارُ والـــدِّرهَمُ. يقـــول بعض الظّرفاء:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَـــى مَنْ عِنْدَهُ مَـــالُ
وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ مَـــالُ فَعَنْهُ النَّاسُ قَدْ مَالُـــو

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَـــبُ
وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ ذَهَـــبُ فَعنَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُـــوا

رَأَيْتُ النَّاسَ مُنْفَـــضَّهْ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ فِضَّـــــهْ
وَمَن لاَ عِنْدَهُ فِضَّـــهْ فعَنْهُ النَّاسُ مُنْفَضَّـــــهْ

٧٧ - كُلُّ أَهْلِ العَصْرِ غُمْـرٌ، وَأَنَا
مِنْهُمُ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الجُـمَلْ

اللغة:

العَصْر: أراد به الزمان الذي عاش فيه.

غُمْرٌ: بضم العين: جاهل، ومادة (غمـر) تـدل علـى سـتر وتغطية.

وفي نظم المثلث:

إِنَّ دُمُوعِي غَمْرُ وَلَيْسَ عِنْدِي غِمْرُ
يَـا أَيُّهَذا الغُمْرُ أَقْصِرْ عَنِ التَّعَتُّبِ

وفي شرحه المنظوم:

يُقَالُ لِلْمَاءِ الكَثِيرِ غَمْـرُ وَالحِقْدُ فِي الصَّدْرِ فَذَاكَ غِمْرُ
وَالرَّجُلُ الجَاهِلُ فَهُو غُمْرُ فَلاَ تَكُنْ مِنْ جُمْلَةِ الجُهَّـالِ

الشرح:

حَكم الشاعر على جميع أهـل عصـره بـأنهم أَغْـرار، قَليلو التَّجربة، وبَالَغ في ذلك، فَقَد كـان في عصـره ومِصْـره من لم يُعرف بعده مَثيلٌ، ولكنّ الشَّـرَّ إذا غَلـب يُنسـي مـا

عداه من الخَير، والإنسان إذا أُوذي أو غَضب أو كَره أو تشاءَم، أو جاوَرَ الأشرارَ، أو خالطَهم، أو عامَلهم في أمر الدُّنيا، وجد ما يُؤيِّسُه، ويَنْزِعُ حُسنَ الظَّن من قَلبه بعُموم الناس.

ومن حُسن تواضعِ الشَّاعر وفطانَته أن قال: (وَأَنَا مِنْهُم)، قاله تواضُعاً واحتقاراً لنفسه، واحترازاً من تزكيةِ النَّفس المَبنية على ذَمِّ الآخَرين كلِّهم، كما يفعل بعضُ الناس مِن ذَمِّه لِلكبار، ونقدِه لهم ؛ ليرفع من شأن نفسِه، فيسيئُ مرتين، فهو أَسْوَأُ مِمَّن يمدَح نفسه ابتداء، وهذا أَسوأ مِمَّن يَمْدَح نفسَه بذمِّها، وإظهار التواضع...كمن يقول: أحقرُ العباد إلى الله، أو أنا أقلُّكُم عِلماً وفهماً وديناً، ونحو ذلك مما نسمعُه من كثيرٍ من الواعظين والجُلاّسِ.

ولما كان كلامُ المصنف باعثاً على الاستغرابِ من هذه الدعوى، وداعياً إلى السؤالِ عن معنى هذا الإجمال، طلب تركَ الاستفصالِ في المقالِ، وفزع إلى الإجمال، فما كلُّ شيء يقالُ..

وتم «تفاصيل الجُمل» شرحاً مفصَّلاً، لم أرد التطويل فيه بكثرة النقل والحواشي، والإطالة بتحقيق المسائل وتدقيقها، وإنما هي خواطر في الذهن، ومعرفة في النفس وضعتها في ظلال النظم..ولا يهولنَّك ما جاء في صدر الكتاب من ثناء، فإنه مما أُلِفَتْه التراجم..وقد شرحها: مسعود القناوي، المتوفى بعد (١٢٠٥هـ)، سماه «فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان»، أكثر فيه من الاستطراد.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

obeikandl.com

الفِهْرِسْت

الموضوع	رقم الصفحة
بين يدي التفاصيل	٥
المقدمة..وفيها الكلام عن الحكمة والتجربة وحال العصر ولغز في لامية ابن الوردي	٩
ترجمة ابن الوردي	١٥
العُزلة	١٧
زمن الصِّبا..وذهاب اللذة وبقاء الحسرة	١٩
ضحايا الحُب.. لا ديةٌ ولا قَوَدٌ	٢٢
اجتناب اللهو ودواعي الفحشاء	٢٣
استطراد ابن الوردي فيما لا يحسن الاستطراد فيه	٢٥
شمس الضحى	٢٦
استطراد آخر	٢٦
تدقيقات لغوية.. والكلام عن منتهى الجمال، وحال الدنيا	٢٧
الخمرة وغوائلها	٣٠
تقوى الله هي البطولة الحقيقية	٣١
الركون إلى الشرع لا إلى الكهان، وفضيحة عن المنجِّمين	٣٢

قدرة الخالق ٣٤
لغويات وتعريفات.. والكلام عن الموت وهلاك السابقين..... ٣٥
وصايا في طلب العلم وترك الكسل..... ٤٠
النوم وفلسفته ٤٣
الاحتفال بالفقه وترك العجز..وبسط في العلم وفضله ٤٦
عظمة العلم وأهله: والنحو كمال الكلام ٤٩
نظم الشعر، والترفع عن المديح طلباً للعطايا،
وكرامة السائل والمسؤول، والثقة بالله ٥٣
أمرّ الألفاظ وأعذبها ٥٦
مُلك كِسرى، والزهد في الدنيا، وأمر الرزق ٥٦
اطِّراح الدنيا، وحال الناس فيها جهالاً وعلماء..... ٦٠
حال الشجعان فيها والجبناء.. والحيلة في ترك الحيلة..... ٦٣
ابن الوردي يدعو على البخلاء..... ٦٤
لا تقُل أصلي وفصلي، وقد يكون السؤدد بلا نسب، ودليل ذلك،
واتصال نسب المصنِّف بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ٦٦
قيمة الإنسان ما يُحسنه، والكتمان، والكسب، والجِد،
واجتناب الحمقى ٦٩

التبذير والبخل والإسراف، وحفظ اللسان، والتغالي..... ٧٤
لا يخلو أحد من ضِد، واجتناب النمّام، والمداراة..... ٧٨
ملاينة السلطان، والحكم، وحال الناس مع القضاة،
وحال القاضي..... ٨١
لفظة القاضي..... ٨٦
هل تساوي لذة الحُكم مرارة العزل..... ٨٦
الولاية..والمنصب ونصب المنصب..... ٨٧
تقصير الأمل في الدنيا دليل العقل.. وملاحقة الموت..... ٨٩
إغباب الزيارة، وعدم الاغترار بالمظهر..... ٩٢
الفقر لا يعيب أهل الفضل، والاغتراب..... ٩٦
المصنِّف يحذِّر من النقد عبثا..... ٩٨
المصنِّف يصف زمانه ونفسه..... ١٠٠
اترك تفاصيل الجمل..... ١٠٥
الخاتمة بيان واعتذار..... ١٠٧
الفِهرسْت..... ١٠٩

obeikandl.com